الفصل السابع

أفغانستان: جراح لا تندمل

أفغانستان – بلد جبلي تحدها تركستان السوفيتية من الشمال. . .
وقد عانى الإمبرياليون البريطانيون كثيرا في سبيلهم للسيطرة عليه
وانتهت محاولاتهم بالفشل
وهم يحاولون إخضاع الشعب الأفغاني المحب للحرية

الدليل الجغرافي
موسكو. 1925م

يظـــل الموضوع الأفغاني ملحًا حتى يومنا هذا. فقـــد بقيت ذكريات الحرب المؤلمة حيه في الذاكرة التاريخية للشعب الأفغاني المعاصر. وأكثر من ذلك سارت الولايات المتحدة وحلفاؤها على نفس النهج التي اتبعته الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والاتحاد السوفيتي في نهاية القرن العشرين. لم يستفد أحد من دروس التاريخ.

وخـــلال العقدين الأخيرين صدرت في روســيا الكثير من الكتابات حول أفغانســتان، وتنوعت بين دراسات ومذكرات ووثائق. وقد سمح ذلك بتدقيق الكثير من الحقائق والتقديرات التي تتعلق بالأحداث في تلك الفترة. ولم يتبدل فهم المؤلف للمأســاة الأفغانية وتأثيرها على روســيا أو الاتحاد السوفيتي غير أن ما استجد من وثائق يمكن أن يمنحنا تصورًا أكثر اكتمالًا وتوازنًا. وأقصد هنا طبيعة القرارات المتعلقة بأفغانســتان نفسها وليس المتعلقة بالحرب الدائرة فيها.

ومنذ قيام الســلطة السوفيتية في روســيا، وحتى الانقلاب الثوري في أفغانستان 27 إبريل 1978م تطورت العلاقات السوفيتية الأفغانية بوتيرة مرضية للطرفين.

وقد زار نيكيتا خروشـــوف ونيقولاي بولجانين كابول في ديسمبر 1955م أثناء جولتهما التي ضمت أيضا كل من الهند وأندونيسيا. وقد تركت الزيارة انطباعًا طيبًا. كانت أفغانستان الملكية تقع وفق التصنيف الســـوفيتي ضمن «منطقة السلام»، وأضحى التعاون الثنائي معها يتنامي يومًا بعد يوم.

كانت كل الحكومات الأفغانية المتعاقبة تنتهج سياسة معادية لكل من بريطانيا وباكستان، وهو ما ســـاعد على إحداث التقارب السياسي بين الاتحاد السوفيتي وأفغانستان. وقد قامت بريطانيا (قبل ظهور الولايات المتحدة – العدو الرئيســـي للاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط والأدنى) بمحاولة لضم أفغانستان إلى الإمبراطورية البريطانية. فقد كانت تدخل ضمن ما عرف بخط ديورند وخاصة المناطق القبلية في البوشـــتون، والتي تمثل مركزاً ونواه جغرافية بأفغانستان. في البداية تم ضم هذه المناطق إلى الهند البريطانية ثم ضمن المحافظة الشـــمالية الغربية الحدودية في باكستان.

بقيت مشـــكلة البوشتون السبب الأول في العداء بين الحكومة في كابول وباكستان. كما تســـبب انضمام باكســـتان إلى حلف بغداد في سبتمبر 1955م في رفض أفغانستان القاطع للانضمـــام إليه لاســـيما أن علاقتها بإيـــران أيضا كانت فاترة. وفي ظـــل التنافس الأمريكي السوفيتي العولمي كان الرهان الأمريكي على باكستان وإيران سببا في ابتعاد أفغانستان وسعيها لتوطيد علاقتها مع الاتحاد الســـوفيتي. وكان للسياســـة الصينية المعادية للاتحاد الســـوفيتي في الستينيات والســـبعينيات دورها المؤثر على مساعي التقارب تلك حيث كانت هذه السياسة تقوم على إقامة تعاون وشراكة قوية مع باكستان على حساب علاقاتها بكل من الهند والاتحاد السوفيتي وأفغانستان.

توافقت المواقف بين كل من أفغانســـتان والاتحاد الســـوفيتي حـــول العديد من القضايا، وتجســـدت الشـــراكة والتعاون في المســـاعدات العســـكرية التي قدمها الاتحاد السوفيتي إلى أفغانســـتان وتدريـــب الضباط الأفغان في الاتحاد الســـوفيتي. كما تم إيفـــاد عدد من الخبراء العسكريين السوفيت إلى أفغانستان.

وفي المجـــال الاقتصـــادي كان التعاون في مجال اســـتخراج الغاز وإنشـــاء المزارع في جلال أبـــاد والمعهد التقـــني في كابول ومصنع إصلاح المعـــدات والآلات في جتكلك بالإضافة إلى المشروعات المشتركة في مجال الاستكشافات وبناء محطات الكهرباء. ومن أهم المشروعات التي

قدمها السوفيت بناء نصف دائرة من الطرق الممتدة من الحدود السوفيتية في منطقة كوشكي عبر قندهار إلى كابول ثم إلى الشـــمال عبر ســـالانج حيث تم شـــق نفق في الجبل على طريق مزار شـــريف وحتى الحدود الســـوفيتية. وفضلًا عن أهميته الاقتصادية اعتبر هذا الطريق وسيلة لتحييد أفغانستان سياسيًا.

وصل حجم المســـاعدات الســـوفيتية إلى عشرات ملايين الروبلات ســـنويًا، وكان ذلك ثمنا بخســـا مقابل تحييد دولة تمتد حدودها لألفي كيلومتر مع الاتحاد السوفيتي، ومقابل خلو أفغانستان من أي قاعدة عسكرية أجنبية يمكن أن تستخدم ضد الاتحاد السوفيتي. بل على العكس وفر ذلك نفقات الاحتفاظ بقوات ضخمة في آسيا الوسطى والإبقاء عليها في الحد الأدنى، وهو الفارق في الإنفاق الذي يعوض بارتياح الإنفاق على المعونة.

كان عدم التدخل الســـوفيتي في الشـــأن الداخلي الأفغاني، وعدم أدلجة العلاقات ضامنًا لثقة القيادة الأفغانية تجاه الاتحاد السوفيتي وتعاطف شعبهم مع كل ما هو روسي أو سوفيتي.

وبعد زياراتي المتعددة لأفغانســـتان في ســـنوات ما قبل الثورة ولقاءاتي وحواراتي في السفارة الســـوفيتية في كابول وفي موسكو بمبنى وزارة الخارجية استطيع أن أؤكد أن الظروف المحيطة في تلك الفترة بما فيها النظام الملكي لظاهر شـــاه كانت ملائمة تماما للقيادة السوفيتية، ولم يكن هناك أي نوايا أو مساعي لتغيير هذا الوضع.

لكن التاريخ وتطور الوضع الداخلي في أفغانستان جرى على غير المتوقع.

أصبح النظام الملكي المتخلف والمنتمي إلى القرون الوسطى عبئًا ثقيلًا على الطبقة الوسطى والبرجوازيـــة والتجار وأصحـــاب الأعمال والمثقفين وحتى بائعي التجزئـــة الأفغان. فلم يكن باســـتطاعة هذا النظام التعامل على قدر المســـؤولية مع التغيرات. أخذت المطالبات باجراء إصلاحات تعلو أكثر فأكثر. وساعدت المجاعة والكوارث الطبيعية التي حلت بالبلاد في بداية الســـبعينيات في زعزعة استقرار النظام ثم سرعان ما انقلب محمد داود أحد أقرباء الملك عليه في عام 1974م حيث أعلن الجمهورية وأبقى على ما عدا ذلك كما هو.

أضعف الانقلاب من السلطة الحاكمة. وفي الوقت نفسه تنامت قوة أخرى في البلاد وهي قوة الحزب الماركســـي الشعبي الديمقراطي في أفغانستان. وكلما تأخرت الحكومة أو السلطات الاســـتعمارية في إجراء إصلاحات كلما قويت شـــوكة المعارضة اليسارية. وقد انتشرت هذه

الظاهـــرة في كل مـــن إثيوبيا وموزمبيق وأنجولا وليبيا واليمن الجنوبي. . . ولم يكن أفغانســـتان استثناءًا.

في أفغانستان كما هو الحال في أثيوبيا انضم عدد كبير من الضباط إلى اليسار الماركسي. كان النموذج الإشتراكي الماثل في المناطق الأخرى من العالم جذابا بالنسبة للمجتمع الأفغاني حيث كان حجم التناقض هائلًا بين مستوى المعيشة في بلدان آسيا الوسطى السوفيتية، وبين الحال في أفغانستان. وبدت الجوانب السلبية في حياة جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية غير ذات أهمية في عيون الماركسيين الأفغان إذا ما قورنت بما تم من انجازات.

وقد تأســـس الحزب الديمقراطي الشـــعبي في أفغانستان بشكل ســـري في كابول في يناير 1965م. وكان أول رئيس له هو نور محمد تاراكي وحفيظ الله أمين وهما من البشـــتون. وفي عام 1967م انشـــقت عنه مجموعه بقيادة الطاجيكي بابراك كارمال وأطلقت على نفســـها اسم حركة «الراية» أو البرشمة. وما تبقى من عناصر والحزب وهم الأغلبية أطلقوا على أنفسهم اسم «خلق». ولعبت الأسباب الشخصية والإثنية دورًا كبيرًا في حدوث هذا الانقسام داخل الحـــزب، كمـــا كان للخلافات في الاســـتراتيجيات المتبعة دور أيضـــا في ذلك. كان معظم الضباط ينتمون إلى «خلق».

وفي يونيو 1977م اتحد الفريقان مرة أخرى وأطلقوا على أنفسهم اسم الحزب الديمقراطي الشـــعبي، ووضعوا نصب أعينهم هدفًا واحدًا وهو إسقاط نظام الرئيس داود. وفي 27 إبريل 1978م تم خلع داوود بعد انقلاب دموي عسكري أطلق عليه اسم «ثورة إبريل العظمى». وفي 29 إبريل تم تشكيل مجلس ثوري يتألف من 35 عضوًا. وفي أول حكومة برئاسة تاراكي والـــتي أعلنت يوم الأول من مايو تم تعيين 11 وزيرًا مـــن «خلق» و10 من «البرشمة». وتم تعيين كارمال نائبا لرئيس الوزراء أما أمين فتم تعيينه في منصب وزير الخارجية. كانت السلطة الحقيقية في يد تاراكي الأمين العام للحزب الديمقراطي الشـــعبي ورئيس المجلس الثوري ورئيس الوزراء والقائد العام للقوات المســـلحة. ونشير هنا إلى أنه «من بين 21 عضوا بالحكومة التي تأسســـت يوم 17 إبريل كان هناك 10 قد درسوا بالولايات المتحدة الأمريكية و3 بالاتحاد السوفيتي.»

ولم يكن الاتحاد الســـوفيتي هو من دعم الإنقـــلاب. ولذا لم تحظى الاتهامات المتناثرة من هنا وهناك في حق الاتحاد الســـوفيتي بالتأييد حتى في أثناء الحملة الدعائية المعادية للسوفيت.

وقد جاء في مذكرة للمخابرات الأمريكية بتاريخ 28 سبتمبر 1979م ما يلي: «ليس لدينا أية دلائل قاطعة تدعي فرضية قيام الاتحاد السوفيتي بتدبير الانقلاب الذي جاء بالماركسيين إلى السلطة» وقال البرفوسير يو. ف. جانكوفسكي الخبير في تاريخ أفغانستان أن الشاعر والأديب تاراكي قد زار موسكو في عام 1965م أثناء مؤتمر للكتاب والأدباء ولم يحظى باستقبال رفيع المستوى حينها. تحدث معه أحد العاملين في اللجنة المركزية للحزب فقط وأخبره حينها أن أفغانستان ما زال غير مستعد للثورة الاشتراكية»، وقد أصبح من الواضح لدينا اليوم أن المخابرات الخارجية السوفيتية كانت على علم بمخططات الانقلاب بل وحذرت منه قيادة الحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني، ولكن دون جدوى.

كانت الظروف في أفغانستان قد نضجت تمامًا وأصبحت البلاد مهيأة للثورة. وكانت المشكلة تكمن في شكل الثورة والقوى التي يمكن أن تقوم بها والبرنامج الذي يتوجب القيام به.

وكانت الحكومة الجديدة تتسم بالكثير من الرومانسية وعدم الواقعية حيث أخذت تستعرض كراهيتها للإسلام، وأثارت بذلك عداء عدد كبير من قيادات الإدارة الدينية الإسلامية في أفغانستان البلد المعروف بتدينه الشديد.

وكان كاتب هذه السطور متواجدًا حينها بالقاهرة في انتظار أن يقوم المكتب السياسي في الحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني بتأسيس مسجد جامع والصلاة فيه في بداية حكمه، ولكن ذلك لم يحدث. فلم يبدر إلى ذهن الماركسيين الجدد الذين استولوا على الحكم في أفغانستان أن يقوموا بفكرة براجماتية بسيطة كتلك.

وأعلن الثوار الأفغان عن خطط طموحة تشمل إصلاحات زراعية، وتطوير للتعليم والثقافة وتحرير للمرأة وتقليص الضرائب. كما بدؤوا حملة ضد الفساد والتهريب والمخدرات. لكنهم رغم ذلك لم يضعوا في حسبانهم الواقع السياسي والاجتماعي والتوجه الديني والثقافي الحاكم في نمط تفكير المجتمع الأفغاني.

اصطدمت الإصلاحات الزراعية بمقاومة ورفض طبيعي من قبل أصحاب الأراضي، بل ومن الفلاحين الذين لم يكونوا مستعدين بعد للانتقال إلى طبقة اجتماعية جديدة. كما لم يهتم القائمون على سياسة الإصلاح الزراعي الجديدة بخصوصية توزيع الأراضي والمياه في مختلف المناطق والعلاقة المتبادلة بين الملاك والفلاحين. اصطدمت الإجراءات الثقافية

والتعليمية وتغيير وضع المرأة بالتقاليد الإسلامية المحافظة. كما دمرت سياسة مكافحة التهريب النشاط الاقتصادي الذي اعتاد عليه السكان البشتون ما أدى إلى إثارة غضبهم. أدى السعي إلى فرض المركزية في الحكم إلى غضب زعماء القبائل وكبار الإقطاعيين.

وفي كتابه المعنون ب « ثلاثون عامًا في الميدان القديم» كتب ك. ن. بروتينس قائلا: «بعد تأييده للنظام الجديد أصبح الاتحاد السوفيتي رهينة لقوى غير متزنة وغير ناضجة تفتقد القدرة على السيطرة. ووقعت موسكو في فخ وتورطت في لعبة توجب عليها أن تضاعف رهانها على نجاحها يومًا بعد يوم دون فائدة تذكر» وفي كتابه «أسرار الدبلوماسية السوفيتية» كتب أو. جرينيفسكي: غمغم جروميكو:

– لم تكن تلك أياما حزينة. فقد كانت أفغانستان جارًا مطيعًا. وكأنها فنلندا في الجنوب. فماذا عسانا ننتظر من هؤلاء المجانين الجدد؟

وفي الوقت نفسه أصبح المفكران والخبيران في العلاقات الدولية سوسلوف وبونوماريوف ينظران إلى أفغانستان بوصفها دولة اشتراكية جديدة محتملة. كانا ينظران إليها بوصفها منغوليا الثانية التي تخطو خطوات جريئة في سبيلها للانتقال من النظام الإقطاعي إلى الإشتراكية.

وكان من بين المتحمسين لبناء مجتمع اشتراكي في أفغانستان ف. كريوتشكوف رئيس الإدارة العامة للمخابرات السوفيتي كي جي بي، وذلك على الرغم من أن رئيسه، مدير المخابرات السوفيتية ف. أندروبوف كان متحفظًا في موقفه .

وفي منتصف مايو جرى نقاش مثمر حول أفغانستان أثناء اجتماع اللجنة المركزية. وقد لخص ج. كورنينكو أحد المشاركين في الاجتماع النقاط الأساسية على النحو التالي:

«على الرغم من ابتعاد المجتمع الأفغاني عن النهج الاشتراكي في التنمية إلَّا أن سوسلوف كان يرى في أفغانستان بمثابة «منغوليا ثانية» تقفز قفزات واسعة من الإقطاع إلى الاشتراكية. . . وأذكر أنه وفي أثناء أحد اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي أعربت عن تشككي في رؤيته تلك وأشرت إلى أن مصالح الاتحاد السوفيتي في حاجة إلى أن تصبح أفغانستان نسخه آسيوية من فنلندا المحايدة. وكنت أرى أن هذا الوضع سيكون الأنسب لنا حتى لا تقع فريسة للغرب.

وقد تعجب بونوماريوف من ملاحظتي تلك وقال: «كيف يمكن أن نشبه أفغانستان بفنلندا؟ فنلندا دولة برجوازية». فطرحت سؤالا ساذجا: «ألا يمكن أن نعتبر أفغانستان دولة ناضجة الآن لقبول الاشتراكية؟» فعاجلني ر. أوليانوفسكي (الذراع الأيمن لبونوماريوف في شؤون العالم الثالث) بالإجابة قائلا: «لا يوجد في العالم الآن بلد لم ينضج بالقدر الكافي لقبول النهج الاشتراكي»

وقد تابعت القيادة السوفيتية تطور الأحداث في أفغانستان بمشاعر مختلطة. فمن ناحية كانت العلاقات مع النظام السابق ممتازة، ولكن من ناحية أخرى إذا كان البلد يسعي إلى أن يسلم نفسه إليك فلم أرفض؟ فالنظام الملكي في النهاية كان نظامًا رجعيًا فاسدًا متخلفًا وموالياً للاستعمار. هكذا وصل حزب ماركسي للحكم في بلد مجاور، وانضم عضو جديد إلى رابطة الدول الإشتراكية. وبالفعل كانت منغوليا أخرى في تحولها السريع نحو الاشتراكية ومن ثم الشيوعية.

فقدان أفغانستان أمر غير مقبول

في الخامس من ديسمبر 1978م أبرم تاراكي مع موسكو اتفاقية صداقة وحسن جوار وتعاون تمتد لعشرين عامًا وهي الاتفاقية التي بلورت شكل العلاقة بين البلدين.

وهكذا تورط الاتحاد السوفيتي في تقديم المساعدة والدعم وما نتج عن ذلك من رهانات ومخاطر وتورط جديد. . . لم يجرؤ أحد على المطالبة بالتراجع عن هذه الخطوة فتنامي حجم الدعم العسكري للنظام. أخذت موسكو توفد المئات ثم الآلاف من المستشارين العسكريين إلى الجيش الأفغاني. وأخذت عناصر المخابرات السوفيتية تتردد على هذا البلد لجمع المعلومات والتعاون مع نظرائهم في الأجهزة الأفغانية. كما تم تقديم مساعدات حزبية وخبرات في مجال تنظيم الدعاية والصحافة والتنمية الثقافية والاقتصادية. باختصار تم نقل خبرات المؤسسات السوفيتية إلى بلد غريب غير مستعد لقبول هذه الأفكار والتحولات. وتم دفع ثمن هذا الخطأ غاليا حيث سقط العديد من الضحايا السوفيت.

وقد توجه كل من تاراكي وأمين أكثر من مرة بطلب المساعدة بإرسال قوات عسكرية سوفيتية إلى أفغانستان.

لكن كان هناك ثمة فرق كبير واضح بين إرسال خبراء عسكريين وإرسال قوات وفرق عسكرية. وكأي بلد طبيعي قام باتخاذ الإجراءات التحضيرية لذلك. تم تجميع القوات السوفيتية في آسيا الوسطى وما تحتاجه من وسائل نقل. هذا هو منطق العسكريين أن يكونوا دائما جاهزون لمفاجآت أو أي تطور مفاجئ للأحداث. ولكن ما الذي دفع القيادة السوفيتية إلى اتخاذ مثل هذا القرار السياسي المغامر؟

وتبدو الإجابة على هذا السؤال معقدة ولا تقتصر على النتيجة التي تضمنها قرار مؤتمر نواب الشعب السوفيتي «حول التقدير السياسي لقرار إرسال القوات السوفيتية إلى أفغانستان في ديسمبر في 1979م» بتاريخ 24 ديسمبر 1989م حيث اعتبر الحزب هذا القرار "يستحق الإدانة سياسيا وأخلاقيا»

وفي سبتمبر 1978م تحولت المعارضة الصامتة للنظام إلى مقاومة مسلحة أصبحت تكتسب زخمًا يومًا بعد يوم، وقد تلقت هذه المعارضة دعمًا من باكستان والولايات المتحدة الأمريكية ثم من الصين والمملكة العربية السعودية وإيران والكويت ومصر. تم إنشاء معسكرات لتدريب الثوار في باكستان وتم تسريح الآلاف من قوات الجيش الأفغاني. وكان السلاح منتشرًا بين عامة الناس. تم تقويض القاعدة الإثنية والسياسية للنظام بسبب الصراعات التي اندلعت داخل الحزب الحاكم. وفي أغسطس 1978م. جرت عمليات فصل واعتقال وتعذيب وقتل وتم إبعاد بابراك كارمال من المجلس الثوري وتعيينه سفيرا في تشيكوسلوفاكيا ثم عزله من هذا المنصب لاحقًا. فطلب اللجوء السياسي في تشيكوسلوفاكيا.

وفي مارس 1979م أصبح حفيظ الله أمين رئيسا للوزراء، وكان فعليا يترأس وزارة الدفاع في ذات الوقت. وقد قام على تدعيم نفوذه رغم أن تاراكي قد احتفظ بعدد من المناصب الهامة. احتدم الصراع بينهما في خريف 1979م عندما أصبح هناك سلطتان في البلاد. كانت سياسة تقسيم المناصب والقصور سارية حتى تلك الفترة وفي 14 مارس 1979 اشتعلت في قيراط عده حالات تمرد داخل الجيش. تم قتل الخبراء السوفيت وبعض عائلاتهم. وبعد اتصال حاول فيه تاراكي تهدئة موسكو طلب في اليوم التالي من القيادة السوفيتية إرسال قواتها إلى أفغانستان وضرب المتمردين في قيراط وإنقاذ الثورة.

وظل المكتب السياسي في حالة اجتماع دائم طوال أيام 17 و18 و19 مارس.

كان من الأسباب الأساسية لقرار 17 مارس هو عدم قبول التفريط في أفغانستان بأي حال من الأحوال. تم مناقشه موضوع ضرورة إرسال القوات السوفيتية إلى هناك. قال أ. كوسيجين: «يجب أن نشكل فرقنا العسكرية الخاصة ونرسلهم لتنفيذ أوامر معينة». وصرح د. أوستينوف: «لدينا سيناريوهان فيما يتعلق بالحملة العسكرية». ولخص أ. كيريلينكو ما تم التوصل إليه قائلا: «أرى أنه علينا الموافقة على مقترح أوستينوف بضرورة مساعدة الجيش الأفغاني وتذليل الصعوبات التي تقف أمامه وأن نستخدم في سبيل ذلك قدراتنا العسكرية» وأعطى أوستينوف أوامره بالوصول إلى حالة الاستعداد التام في الجيش ونقل القوات إلى الحدود مع أفغانستان.

وفي احد الاجتماعات التي عقدت بوزارة الخارجية فاجأ جروميكو الجميع بصراحته عندما قال: «افهموا شيئا واحدا. لو تركنا أفغانستان اليوم فسيتوجب علينا غدا أن ندافع عن حدودنا من هجمات المسلمين الأوردو في طاجاكستان وأوزبكستان». ونشير هنا إلى أن جروميكو لم يكن يحب أو يفهم المسلمين كما كان يرى في الأصولية تخلفا ورجعية.

وفي يوم الأحد الموافق الثامن عشر من مارس اجتمع كل من جروميكو وأندروبوف وأوستينوف صباحًا في إحدى الداتشات خارج موسكو وناقشوا بصراحة الموقف والقرار الذي يجب اتخاذه. كان المعارضون لقرار التدخل العسكري أغلبية وربما اتصلوا ببريجينيف الذي كان في عطلة يومي السبت والأحد في مزرعته بقرية زافيدوفا. ويبدو أن الجنرال المريض والحذر لم يكن يؤيد أي قرارات حاسمة.

وفي الاجتماع التالي للمكتب السياسي تحدث أندروبوف بكلمات حماسية ألهبت الحضور حيث قال: «لن نستطيع إخماد الثورة في أفغانستان سوى ببنادقنا ولكن هذا الخيار غير مقبول بالنسبة لنا فلا يمكن أن نقدم على مغامرة كهذه». وأشار جروميكو إلى ان التدخل في أفغانستان يمكن أن يبدد كل الجهود التي بذلت من أجل تخفيف التوتر في الموقف. كما عارض أوستينوف أيضا إرسال القوات إلى أفغانستان. وفي الاجتماع التالي الذي عقد يوم 19 مارس حضر بريجينيف بنفسه وأخذ يقرأ من ورقة في يديه» لم يحن الأوان بعد أن نتورط في هذه الحرب». وقد أبلغ كوسيجين فحوى هذه الرسالة إلى الزعيم الأفغاني تاراكي الذي زار موسكو في اليوم التالي. وتم تنظيم لقاء قصير بين تاراكي وبريجينيف المريض حيث كرر له الأخير الكلمات ذاتها.

تم تأجيل القرار المؤلم وإن كان إلى حين.

وفي إبريل وبعد عرض المذكرة التي تقدم بها كل من أندروبوف وجروميكو وأوستينوف وبونوماريوف اتخذ المكتب السياسي قراره رقم ب-149(14) والذي يدعم موقف رفض إرسال قوات عسكرية إلى أفغانستان. «إن قرارنا برفض تلبية طلب القيادة الأفغانية بإرسال قوات عسكرية إلى قيراط كان قرارا صائبًا تمامًا. وسوف نظل متمسكين بموقفنا هذا حتى في حالة اندلاع أي اضطرابات جديدة ضد الحكومة وهو الأمر غير المستبعد»

وقد تضمنت المذكرة تحليلًا موضوعيًا للموقف في أفغانستان مع الكشف عن الأخطاء التي ارتكبتها القيادة الأفغانية والآثار الحتمية السلبية لأي تدخل عسكري.

وفي تلك الأثناء كان الصراع محتدمًا داخل قيادة الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني ووسع الثوار من فعالياتهم. كان رد الفعل السوفيتي تجاه الأحداث بسيطا جدًا: يجب عليكم أيها الزعماء الأفغان أن تتصالحوا وتعيشوا سويًا في ود وتعاون. لم تكن القيادة في موسكو تدري بما يتوجب عليها فعله.

وفي بداية صيف 1979م تم تأسيس لجنة خاصة بأفغانستان ترأسها جروميكو. وقد ضمت اللجنة في عضويتها كل من أندروبوف وأوستينوف وبونوماريوف غير أنها حاولت أن تبقى في منأى عن الشؤون الأفغانية.

وقد صرح جروميكو ذات مرة للمقربين منه: «لا تورطوني في هذه الأمور. فالثورات تأكل أبنائها. هذه هي الحقيقة التي توصل إليها الفرنسيون في القرن الثامن عشر. لا يمكنا أن نقف أمام هذه البديهيات. ولذا فقد كان أندروبوف يقوم بمهامه في رئاسة اللجنة شكليًا وكان جروميكو دائمًا ما يوافق على رأي الأعضاء ثم يتم إقرار التوصيات في اجتماع اللجنة. »

و قد طار بونوماريوف مرتين إلى كابول. كما أقام نائب وزير الدفاع إي. بافلوفسكي أكثر من شهرين في أفغانستان

و في 12 سبتمبر 1979م عاد تاراكي من كوبا حيث شارك في الاجتماع السادس لرؤساء دول وحكومات منظمة عدم الانحياز وتوقف في طريق عودته في موسكو. وقد استقبله بريجينيف بحرارة.

وعندما عاد تاراكي إلى كابول وجد غريمه أمين قد قوى نفوذه معتمدًا على دعم الجيش والأجهزة الأمنية له. وباءت محاولات السفير السوفيتي والمنظمات الأخرى للتقريب بينهم

بالفشـــل. كان أمين يصر على أن يسلمه تاراكي الوزراء الأربعة المناصرين له لاعتقالهم. وقد اختفى ثلاثة منهم في السفارة السوفيتية.

وفي 14 ســبتمبر دعى تاراكي أمين هاتفيا إلى مقره. وقد رفض الأخير خوفًا من تعرضه للغدر. إلَّا أن تاراكي استشهد بوجود السفير أ. بوزانوف في مكتبه بصحبه عدد من المندوبين الســوفيت. وأكد بوزانوف ذلك لأمين هاتفيًا. حيث كان مــن بين الحضور اللواء في الكي جي بي ب. إيفانوف والمستشار العسكري للواء ل. جوريلوف وكذا المترجم د. ريوريكوف.

وفي بهو القصر استقبل أمين أحد مساعدي تاراكي برتبة عقيد ويدعى طارون حيث تقدم الجميع إلى الطابق الثاني. وسار خلفه كل من أمين وحرسه الخاص. وبمجرد أن وصل إلى باب مكتــب تاراكي فتح الحرس الواقــف عنده النار فقتل طارون وأصيب أحد حراس أمين الذي نجح في الفرار.

فمن الذي خطط لمحاولة الاغتيال؟ هل هو تاراكي نفسه؟ ربما. كان مساعده طارون من الأصدقاء المقربين لأمين وعميلًا له وســط المقربين من تاراكي. وربما علم تاراكي بذلك وقرر أن يضحي به.

ربما أمين هو من دبر سيناريو لاغتياله هو نفسه من خلال أشخاص من معاوني تاراكي؟ ربما. فقد ترك طارون يصعد إلى أعلى فيما سار هو خلفه محاطا بحرسه.

وهناك احتمال آخر أن أنصار تاراكي الذين لم يعد لديهم ما يفقدوه بعد أن أصدر أمين أوامره بالقبض عليهم فقرروا أن يغتالوه بمعاونه أفراد من حرس الرئيس.

و لا توجد إجابة قاطعه على هذه الاسئله ولن تكون.

كانــت العواقب متوقعة فقد أمــر أمين قوات الجيش بمحاصرة الرئيــس، ولم يبد الحرس الجمهوري أيه مقاومة كما قام اثنان من حرسه الشخصي بتسليم أنفسهما واختفيا تمامًا وفقد تاراكي الاتصال بالعالم الخارجي.

وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني. وتم اتخاذ قرار بالإجماع بعزل تاراكي من الحزب وحرمانه من كافة مناصبه. وتولى أمين الرئاسة.

بعثت القيادة السـوفيتية بتهنئة رسمية إلى أمين بتعيينه رئيسـا. إلا أن بريجينيف طلب منه الحفـاظ على حياة تاراكي. غير أنه أصدر قرارا بشـنق تاراكـي خلال بضعة أيام كما وضع عائلته في السجن.

تقليد معتاد للاستبداد في الشرق. . . .

وجاء في وثيقة أفغانية رسمية أن السـفير السوفيتي بوزانوف متورط في محاولة اغتيال أمين، وقد أجبر على العودة إلى موسـكو حيث أحيل إلى التقاعد. وحل محله سـكرتير لجنة التتار وعضو اللجنة المركزية في الحزب الشـيوعي السوفيتي فكرت أحمدجانوقيتش طابييف، واستمر في منصبه عدة سنوات.

لم يستغرق الأمر سوى أربعة أشهر حتى تم التخلص من أمين نفسه وقتله.

فبعـد أن أصبح ديكتاتورا صاحب سـلطة مطلقة ولا محـدودة، واصل عملية تطهير بلا رحمة لكل المعارضين من أنصار تاراكي في الجيش وأجهزة الأمن والداخلية والحزب. واستمرت الحرب الأهلية دون تحقيق أي نجاح لأي من الطرفين. وشـعر أمين أن الأصدقاء السـوفيت لا يثقون به ولذا توجه إلى موسـكو في زيارة رسمية لإقناع «الرفيق بريجينيف» بولائه التام إلى الاتحاد السـوفيتي. ومرة أخرى كرر طلبة بإرسـال قوات سوفيتية إلى أفغانستان فتورط الاتحاد السوفيتي أكثر فأكثر في المستنقع الأفغاني حيث تم في ديسمبر إرسال فرقة إسلامية عسكرية لحراسة الرئيس الجديد وفرقة أخرى لحراسة وتأمين القاعدة الجوية في باجرام.

ونصح السـوفيت أمين بالتفاهم مع باكسـتان والتخلي عن مطالبة القومية المتطرفة. وقد حاول أمين في الوقت نفسه الحصول على مساعدات أمريكية اقتصادية إضافية وتخفيف حدة التوتر في العلاقة مع واشنطن. وأحيانا ما كانت تحدث صدامات وخلافات حادة بينه وبين المستشـارين السوفيت الذين حاولوا التدخل في الشؤون الأفغانية، وتواصلوا مع شيوخ القبائل ورجال الدين المسـلمين النافذين. وقد أدت سياسـاته تلك إلى تبلور رؤية عنه لدى القيادة السوفيتية أنه منافق وصاحب وجهين وغير مخلص وربما عميل أمريكي. كما أنه سبق ودرس في الولايات المتحدة الأمريكية وربما تم تجنيده هناك.

وقد جاء في محضر اجتماع المكتب السياسـي بتاريخ 31 ديسـمبر 1979م:«يتوجب على كل من السـفارة السـوفيتية في كابول ولجنة الأمن القومي في الاتحاد السـوفيتي ووزارة

الدفاع وقسم شؤون السياسة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي الدراية بسياسات وأفعال حفيظ أمين والمحيطين به وتعاملهم مع القوميين والوطنيين الأفغان وكذا مع الكوادر التي سبق ودرست في الاتحاد السوفيتي أو البلدان الاشتراكية ومع الإدارة الدينية الإسلامية الرجعية وشيوخ القبائل وفيما يتعلق بعلاقة أفغانستان مع الغرب وخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية أو مع الصين. وفي حال توفر المعلومات التي تؤكد بداية تحول في سياسات أمين في الاتجاه المعادي للاتحاد السوفيتي يتوجب تقديم مقترحات إضافية بالإجراءات التي يتوجب علينا القيام بها من جانبنا».

وتم التوقيع على الحكم الصادر على أمين في موسكو. ولكن كيف يتم تنفيذه؟ تم تجميع أطراف المعارضة ضد أمين من الأطراف صاحبة النفوذ داخل الحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني بقيادة بابراك كارمال وأعضاء خلق الذين تم إبعادهم عن السلطة. وقد قام الكي جي بي بتنفيذ الخطة كاملة. لكن في الوقت نفسه لم يكن لدى هؤلاء أيّ إمكانات حقيقية. ولذا تم اتخاذ قرار بدعوة الرئيس الأفغاني إلى موسكو دون تحديد تاريخ للزيارة.

«صمت التاريخ»

وافق كل من أوستينوف وأندروبوف وجروميكو على ضرورة إرسال قوات سوفيتية إلى أفغانستان من أجل دعم الانقلاب حال وقوعه. كانت المشكلة تكمن في معارضة رئيس الأركان المارشال ن. أوجاركوف ونائبه س. أخروميف ونائب وزير الدفاع إي. بافلوفسكي. وقد بقي الثلاثة على مواقفهم المعارضة حتى آخر لحظة. غير أنهم في النهاية خضعوا لإرادة وقرار المكتب السياسي الذي اتخذ القرار السياسي بالتدخل.

وفي الثاني عشر من ديسمبر 1979م صدر قرار المكتب السياسي التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي برقم 125-176. وجاء في منطوقة: «رأس الاجتماع الرفيق ليونيد بريجينيف. وحضر كل من م. سوسلوف وف. جريشين وأ. بيلشي وأ. أوستينوف ود. شيرنينكو وك. أندروبوف ويو. جروميكو ون. تيخونوف وب. بونوماريوف.

قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي رقم 125-176 بتاريخ 12 ديسمبر.

الموافقة على الرؤى والإجراءات التي تقدم بها يو. أندروبوف ود. أوستينوف وأ. جروميكو مع السماح لهم في أثناء التنفيذ بإجراء أي تعديلات ثانوية.

و يجب الرجوع إلى المكتب السياســي في أي مســائل تســتلزم قرارا من اللجنة المركزية. وتقع مســؤولية تنفيذ هذه الإجراءات على عاتق كل من يو. أندروبوف د. أوســتينوف وأ. جروميكو.

تكليف الرفاق يو. أندروبوف ود. أوســتينوف وأ. جروميكو بإخطار المكتب السياسي التابع للجنة المركزية بتطور تنفيذ الإجراءات المشار إليها.

سكرتير اللجنة المركزية ليونيد بريجينيف.

رقم 997 (صفحة واحدة).

تم التوقيع على الوثيقة بخط اليد. ك. شيرنينكو.

كتب جرينيفسكي: « الأمر المهم كما بدا لي أثناء مناقشه الإجراءات المقترحة من القادة الثلاث هو مشــاركة 22 مسؤولًا في النقاش، ولم يكشف أي منهم حتى الآن ما دار حينها. فقط بعد مرور ســنوات طويلة وبعد تعهد منى بكتمان الســر حكى لي مساعد الأمين العام ألكسندروف أن الإجراءات تمثلت في ثلاثة خطوات أساسية:

قيــام قوات الكي جي بي بإبعاد أمــين دون الدخول في تفاصيل الإجراءات التي يعني بها بكلمة إبعاد. ولا يفهم من الوثيقة هل كان المقصود اعتقاله أم تصفيته.

تدخل القوات الســوفيتية إلى أفغانستان لدعم هذا الإجراء إذا ما بادرت أي قوى للدفاع عن أمين ثم تقوم القوات الســوفيتية بعدها بالانتشار في المدن الكبرى لتحرير الجيش الأفغاني لقمع الثوار.

توفير الدعاية اللازمة لتأييد ودعم هذين الإجرائين.

و طلبت من الكسندروف نشر هذه الذكريات لكنه رفض رفضا قاطعا.

اندهشت قائلًا:- لماذا؟

ألا تفهم. سيقتلونني مباشرة.

وتوفي أندريه ميخالوفيتش ولذا فقد تحررت من وعدي له ألا اكتب عن ذلك في حياته»

كان بريجينيـــف في حالة إعياء وضعف أثناء حضوره هذا الاجتماع حتى أنه غادر عاجلًا القاعة بعد اتخاذ القرار. وقد وقع أعضاء المكتب السياسي على الوثيقة فيما لم يوقع كوسيجين حيث كان مريضًا ولم يحضر الاجتماع.

وأضيف هنا تقييم كورنينكو لهذا القرار: عندما أخذت أتفكر في تطور الأحداث ومخاوف القادة الثلاثة من اتخاذ القرار بإرســـال أو عدم إرســـال القوات. كل هذا استمر يقلقني طوال أكتوبر ونوفمبر وبداية ديسمبر. وفي العاشر من ديسمبر 1979م أصدر أوستينوف مرسوما شـــفهيا إلى القيادة العامة للأركان بالبدء في التحضـــير لعملية إنزال جوي لفرقتين في محافظة تركستان واستكمال القوات هناك ومن ثم تكليفهم بمهام محددة.

إلَّا أن قرارا نهائيًا بإرســـال القوات إلى أفغانســـتان لم يتخذ إلَّا في مساء يوم 12 ديسمبر 1979م مـــن قبل كبار القادة الســـوفيت بريجينيف وسوســـلوف وأندروبوف وأوســـتينوف وجروميكـــو. وقد مكث رئيس الأركان أوجاركوف ســـاعتين في الغرفة المجاورة، ولكن لم يهتم أحد بأخذ رايه. وعندما أنهوا الاجتماع خرج أوستينوف وقال له «تم اتخاذ القرار. لنذهب إلى قيادة الأركان لإعطاء الأوامر». حكى لي أوجاركوف ما حدث لاحقا ليّ بنفسه.

وهكذا اتخذ المكتب السياســـي دون حضور كامل أعضائه هذا القرار الحاسم والمؤلم على الرغـــم من أنهم قامـــوا لاحقا بصياغة خطاب قرار وقع عليه كامـــل الأعضاء. غير أن توقيع كوسيجين أيضا لم يكن موجودًا على الوثيقة. أعتقد أن هذا قد لعب دورًا في تنصل بريجينيف لاحقا من القرار في أول فرصة لاحت له.

وفي رأيـــي كان لتأييـــد م. سوســـولوف دورًا حاسمًا في موافقـــة بريجينيف على مقترحات أوستينوف وجروميكو وأندروبوف بإرسال القوات إلى أفغانستان»

هل سنتمكن يومًا ما من معرفة الحقيقة؟ الأقدر على الإجابة على هذا السؤال هو المدير السابق للمخابرات الخارجية السوفيتية ل. شيبارشين.

«لا تتوفـــر لدى الكي جي بي أي وثائق ســـرية تلقي الضوء علـــى إليه اتخاذ القرار بعزل أمين وتشكيل حكومة جديدة برئاسة كارمال وإدخال القوات السوفيتية إلى أفغانستان. ووفقا لشهادات بعض أصدقائي هناك فإن عددا قليلًا من الوثائق المكتوبة يدويًا ومن نسخة واحدة، ولكن تم تدميرها جميعًا بناءا على أوامر أندروبوف. ولا أعلم ما الســـر في تدميرها. ويتوجب

على المتخصصين في تاريخ أفغانستان والحملة العسكرية السياسية الأفغانية التعامل مع ما هو متاح على قلته من الوسائل الرسمية وشهادات الشهود.

لم يتم العثور على أي وثائق في وزارة الدفاع. وعندما أخبر الوزير الجديد د. يازوف بذلك لم يصـــدق. ولكـــن هذه هي الحقيقة حتى وزارة الدفاع لا تتوفـــر على أي وثيقة عن الحملة. باستثناء طلب قدمه أوستينوف بدفع رواتب فرقة الحدود السوفيتية التي دخلت أفغانستان.

لا أعتقد أن وثائق بهذا النوع يمكن أن يكون مكانها وزارة الخارجية. وإذا حدث وتواجدت هناك فهذا أمر مؤقت وفقط لكي يطلع عليها جروميكو شخصيا ثم يتم سحبها مرة أخرى. وعلى كل حال حاول شيفرنادزة البحث عنها ولكن دون جدوى»

ولاحقا كتب الجنرال كيربيتشـــينكو الذي عمل لسنوات طويلة في الاستخبارات الخارجية قائلًا: «بعد تغير السلطة الحاكمة في كابول في 27 ديسمبر 1979م تم إعطاء الأوامر لكل المشـــاركين في هذه العملية بنســـيان الأمر وتدمير كل الوثائق التي تتناول الوضع الميداني. وقد قمت بنفســـي بتدمير ما لدي بلا اســـتثناء ويومًا بيوم. . . أي وثيقة تتحدث عن الوضع في أفغانستان في ديسمبر 1979م»

وبعد 12 ديســـمبر تطورت الأحداث متســـارعة. وقد جاءت تفصيلًا في مذكرات من شارك فيها ولذا سوف نتوقف هنا عند أهم النقاط.

تم إنزال فرقتي قـــوات خاصة «زينيت» و«الرعد» في كابول كل منها قوامها مئة جندي. كما تم إنزال الفرقة الإسلامية وقوامها 500 جندي من سكان آسيا الوسطى يرتدون البزات العســـكرية الأفغانية. وقد تمركزت هذه الفرقة في بعض المواقـــع وكأنها «تحمي» رئيس الدولة الـــذي تم اســـتبعاده إلى قصر على أطراف المدينة حيث كان أمين وحرســـه الذي يبلغ قوامه 2500 جندي. كما تواجد في القصر أقاربه وحرسه الشخصي كما تمركز بجوار القصر فرقتين عسكريتين. وفي كابول كان هناك أيضا فرقتا مشاة وفرقة دبابات.

تم وضـــع خطة الانقلاب العســـكري بســـرية تامة حتى أن الجنـــرال س. مجميتوف كبير المستشارين العسكريين لم يعلم بها الا قبل البدء ببضعة أيام فقط أما السفير فلم يعلم بها إلا في يوم التنفيذ. كانت نســـبة القوت السوفيتية لنظيرتها الأفغانية في منطقة الأحداث 15:1 ولذا كان من الضروري اســـتغلال عنصر المفاجأة وتنســـيق التحركات والاتصالات وتم تهديد المشاركين في العملية بعقاب شديد في حال فشلهم.

وفي يـوم 23 من ديسـمبر تم إعلام حفيظ أمين بقـرار دخول القوات السـوفيتية إلى أفغانسـتان فقدم شكره إلى القيادة السـوفيتية، وأصدر أوامره لقيادة الأركان الأفغانية بتقديم العون اللازم للقوات السوفيتية.

وفي السـاعة 12 يوم 25 ديسـمبر 1979م وصلت الأوامر الموقعة من وزير الدفاع د. أوسـتينوف بعبور الحدود السوفيتية في تمام السـاعة 15:00 من يوم 25 ديسمبر بتوقيت موسـكو. وبدأت القوات الجوية في هذه اللحظات في إنزال قوات المظلات في قاعة باجرام. فيمـا عبرت القوات البريـة الحدود وفي اليوم التالي ويوم 27 ديسـمبر شـددت الوحدات السوفيتية من حراستها للمواقع المهمة في العاصمة.

وفي اليوم نفسه أقام أمين مأدبة غداء في قصره لأعضاء المكتب السياسي والوزراء وزوجاتهم وقال باحتفاء: «الجميع ينتظر القوات السوفيتية. كل الأمور تجرى على ما يرام».

وفجأة شـعر أمين وضيوفـه بتوعك غريب. فقد وضع أحد العملاء السـوفيت، والذي تم تجنيـده وزرعـه في مطبخ الرئيس الأفغاني، مسـحوقا في الطعام يجعل مـن يتناوله يغيب عـن الوعي. وقد أتى المسـحوق بأثره مبكرًا. وفقد الرئيس وعيه وأغمي عليه. تم اسـتدعاء الأطباء السوفيت الذين لم يكونوا يشكون في شيء حيث قاموا بما يلزم لإفاقة رئيس «الدولة الصديقة». ونجحوا في إنقاذه بالفعل. . . . لعدة دقائق.

وفي الساعة السابعة والربع دوى انفجار قوي في شمال كابول كانت تلك فرقة تابعة للكي جي بي قامت بتفجير شـبكة اتصالات وعزلت بذلك العاصمة كابول عن العالم الخارجي، وقطعت الاتصالات بين القادة العسكريين الأفغان فيما بينهم ومع وحداتهم.

وبدأ اقتحام القصر وبه الحرس الرئاسـي الذي استبسـل في المقاومة. شارك في الاقتحام القوات الخاصة في الكي جي بي والفرقة الإسلامية ما وفر سياج من النيران حول الموقع. كما شاركت قوات الإنزال أيضا في الاقتحام.

قتل حفيظ الله أمين وتم لف جثمانه في ملاءة ونقله. كما لقي ابنه الصغير مصرعه بفعل النيران وأصيبت ابنته. كما قتل احد الأطباء السـوفيت. وقتل من مجموعة الاقتحام خمسـة جنود فيما أصيب 17. كما قتل من الفرقة الإسـلامية خمسة عناصر وجرح 35. ومن فرقة الإنزال قتل 9 وأصيب 35. أما الجانب الأفغاني فقد فقد مئات الجنود الذين قتلوا واستسلم 1700.

وفي المساء اتصل أندروبوف بالسيد بابراك كارمال المتواجد حينها في قاعدة باجرام وهنأه بتعيينه رئيسا للمجلس الثوري في جمهورية أفغانستان.

وتمت السيطرة على المواقع الهامة بالعاصمة بأقل الخسائر. استسلم قائد الأركان يعقوب ولكن المتمردين الأفغان المشاركين في العملية أطلقوا النار عليه وقتلوه.

وتم تغيير السلطة الحاكمة. تم تحرير المعتقلين السياسيين من السجون وأصبحوا يشغلون مناصب رفيعة في الدولة.

وفي اليوم التالي من العملية نشرت صحيفة البرافدا خطاب بابراك كارمال إلى الشعب: «بعد فترة طويلة من المعاناة والألم حلت لحظة الحرية والنهضة لكل شعوب أفغانستان. اليوم تم تدمير آله التعذيب التي مارسها أمين ومناصروه في التنكيل والقتل والتنكيل. تم القضاء على الاستبداد وإنهاء حكم أسرة أمين الدموية ومؤيديه الذين استأجرتهم الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة».

تحقق النصر في هذه المعركة. وقام الضباط والجنود السوفيت بعملية عسكرية مبهرة وقاموا بأداء واجبهم العسكري. كانوا يؤمنون بأنهم ينقذون الشعب الأفغاني من طاغية وعميل أمريكي، وكانوا يؤملون أنفسهم بعودتهم سريعا إلى الوطن.

استمرت الحرب التي تورطت فيها القيادة السوفيتية لعشر سنوات كاملة.

كتب اللواء ف. كيربيتشينكو النائب السابق لمدير المخابرات السوفيتية: «بعد مرور سنوات عديدة أصبح جليا أن دم ضحايانا في أفغانستان ذهب هدرا».

وفي 27 ديسمبر 1979م في تمام الثانية عشر ليلًا تلقى ضابط الاتصال للمخابرات السوفيتية في أفغانستان ل. بوجدانوف اتصالًا من نائب أندروبوف، ومدير الإدارة العامة للمخابرات الخارجية ف. كريوشكوف كان نصه: « يجب إعطاء الأوامر بمحو الآثار».

تم تدمير كل الخطط المكتوبة والتسجيلات اليومية للعمليات العسكرية.

القرار المحتوم

كان لمنطق اتخاذ قرار التدخل في أفغانستان مستويات عديدة. كان أولها الرؤية الاستراتيجية العسكرية. ففي ظل المواجه العالمية مع الولايات المتحدة الأمريكية كان لبعض ينظر إلى الأمر على النحو التالي: «إذا لم نبادر نحن بالتصرف سيبادرون هم». وإذا لم تصبح أفغانستان حليفا لنا فإنه في حال انتصرت المعارضة هناك ستصبح حليفا للأمريكيين. فبعد أن فقدت نفوذها في إيران أصبحت واشنطن مضطرة للسعي للسيطرة على أفغانستان سواء بشكل مباشر أو من خلال حليفتها باكستان. ولذا كان المنطق ألا نسمح بتأسيس قواعد عسكرية للغرب في أفغانستان أو قواعد صواريخ وسمي ذلك بفلسفة «العدوانية الدفاعية» للاتحاد السوفيتي وهو الوصف الذي أطلقته صحيفة التايمز اللندنية على التدخل العسكري السوفيتي.

كان حلف الناتو قد اتخذ لتوه قرارًا بنشر صواريخ متوسطة المدى يمكنها أن تصيب الأراضي السوفيتية الواقعة في أوروبا (وذلك ردًا على ظهور الصواريخ السوفيتية متوسطة المدى والتي يطلق عليها في الغرب (سي سي 20).

«أحداث 22 يونيو 1941» أي الموقف الذي بدا فيه الاتحاد السوفيتي بعد هجوم ألمانيا النازية. كان هذا الموقف ما زال عالقا في ذهن القادة السوفيت.

ظلت فكرة «إذا لم نبادر نحن سيبادر الأمريكان» تسيطر على الأذهان بل واقترنت بفكرة أخرى أنتجتها المواجهة وإن كانت على مستوى عسكري آخر. قال لي بعض كبار العسكريين السوفيت: «لقد تخلفنا عن الأمريكيين بحربين. فقد حاربوا في كوريا وفي فيتنام أما نحن فلم نحارب. ويتوجب علينا أن نتحقق من قدراتنا في ساحة القتال وخاصة قطاع الضباط والتأكد من فعالية وكفاءة المعدات العسكرية وأسلحتنا الجديدة. يجب أن يكون وزير دفاعنا القادم رجل ذو خبرات عسكرية وصاحب أوسمة نالها في ميادين القتال». (في أثناء حديثي معهم تذكرت التمثال الموجود بمدينة لوزان السويسرية لأحد الجنرالات هناك ومفارقة أنه لم يشارك في أي معركة في حياته)

«فيما يتعلق بالنجاح العسكري للعملية فإننا لسنا أمريكيين لكي نحتاج إلى ساندويتشات هامبورجر الساخنة معنا في ساحة المعارك. كان أداؤنا في تشيكوسلوفاكيا مخيفا للغرب. أخذ

يصرخ لبضع أسابيع ثم هدأ. فالمنتصر لا يدان. في النهاية نحن ربما ضعاف اقتصاديا أما القدرة العسكرية فهي الشيء الوحيد الذي نتفوق فيه ولذا يجب أن نستفيد منها جيدا. اقتنعنا أنه بمقدورنا تغيير الموقف السياسي بالسبل العسكرية ونجحنا بالفعل في أنجولا وإثيوبيا حينما أرسلنا إليهم بالكوبيين الذين دربناهم وأرسلنا أسلحتنا ومعداتنا إلى هناك. لم يكن بمقدور الإمبرياليين ومرتزقتهم فعل شيء. فما بالك بأفغانستان الفناء الخلفي لدولتنا. هل سيعجز جنودنا عن إرساء النظام بسرعة هناك ومن ثم يعودون بشرف ومجد إلى الديار؟».

لا أعتقد أن الجميع قد تقاسموا هذا الرأي. لكن المؤكد أن الأغلبية كانوا يعتقدون بذلك. فقد تبني هذا الموقف يو. جانكوفسكي وقال: «بالطبع تلقينا رسائل من القيادة الأفغانية يطالبونا بإرسال قوات سوفيتية إلى هناك. وعارض القرار مجموعة من القادة العسكريين. إلاَّ أن الأغلبية العظمى رأت أن تلك فرصه لا تعوض لاختبار معداتنا ومهارة الجنود في المعارك».

ويبدو لىّ أن اهتماما كبيراً قد أعطي للأكليشيه الدعائي «الواجب الأممي» الذي ألقي على عاتق الجيش السوفيتي. فلو كانت الديكتاتورية العسكرية البرجوازية تمكنت من السيطرة على الحكم في أفغانستان حتى وإن كانت تعادي الاستعمار أو الغرب وتتسم بالتقدمية فإن إرسال القوات من أجل الدفاع عنها من المعارضة الداخلية كان أمرًا خاطئًا. ولكن من ناحية أخرى كان هناك مواطنون سوفيت وحزب شقيق استولى على الحكم تحت شعار الماركسية اللينينية وعسكريون يعتنقون الفكر الاشتراكي وقرويون تلهبهم الحماسة. كان يكفي دعم القوى السوية في الحزب. كان الواجب الأممي يكمن في دعم الأخوة من نفس الطبقة الذين أرادوا أن يصبغوا أفغانستان بصبغة الأخ الأكبر.

ولقد وجدت وجهه النظر تلك لدى الشخصية البرجماتية والدبلوماسي البارز ج. كورنينكو:. . . فضلاً عن القلق بخصوص أمن الاتحاد السوفيتي من السلطة المحتملة بعد استبدال النظام الموالي للاتحاد السوفيتي بنظام آخر موالي للأمريكيين، دار الحديث عن فقدان بلد لا يعتبر جارا فحسب بل وبلدا اشتراكيا تقريبًا. ومن ناحية أخرى كان قرار إرسال القوات إلى أفغانستان في رأيي يمثل ذروة وليس بداية النهج الأيدولوجي الخاطئ في الشأن الأفغاني منذ إبريل 1978م. (على الرغم من عدم وجود أي مؤيد للتدخل في افغانستان بين العاملين في القسم الدولي باللجنة المركزية للحزب، بعد استثناء القيادات بالطبع، إلاَّ أن أحدًا لم يسألهم رأيهم)

كان تقديم الدعم إلى أفغانستان بمثابة آخر مظاهر السياسة الميثولوجية للاتحاد السوفيتي ومحاولة لتجسيد فكرة الرسولية التي قامت عليها الدولة السوفيتية. كان الثوار الأفغان وليس القيادة السوفيتية هم من قاموا بالعمل الأكبر في ظل قوانين تاريخية كانت تقول بأن الاشتراكية ستحل محل الرأسمالية كما يحل النهار مكان الليل. حتى لو كانت أفغانستان بلدا فقيرا متخلفًا وحتى لو لم تكن بلدًا رأسماليًا إلَّا أنها وبفضل دعم الاتحاد السوفيتي «الشقيق» ستتمكن من التحول إلى الاشتراكية. وهكذا تستطيع الاشتراكية أن تخطو وتنتقل من بلد إلى آخر على ظهر الكوكب. كانت أفغانستان تمثل محطة جديدة من مسيرة انتصار الإشتراكية.

وأرى من الضروري هنا أن ألقي بعض الضوء على المكون الأيديولوجي في قرار التدخل في أفغانستان. عندما بعث المستشار العسكري للحكومة الأفغانية اللواء ل. جوريلوف بتقرير إلى د. اوستيونوف عن نشوب انتفاضة مسلحة في قيراط يوم 14 مارس 1979م أمره المارشال قائلًا: «استنهض وسلح الطبقة العاملة في أفغانستان». فأجابه جوريلوف: «سمعا وطاعة».

و قد جسدت هذه العبارة بجلاء الجهل السياسي والثقافي لدى أوستينوف رغم تميزه في قضايا كثيرة بطرح رؤى ثاقبة وفكر استراتيجي. وإني لعلى قناعة أنني وكل من بريجينيف وسوسلوف وأوستينوف وأندروبوف وجروميكو قد تأثرنا كثيراً بستالين بمعنى أنه هناك في أعماقنا أو في اللاوعي كنا ننطلق مما تعلمناه وتربينا عليه من فلسفة الحزب الشيوعي.

إن الأمر لا يرجع فقط إلى أنه لم تكن هناك طبقة عاملة في أفغانستان بل في النظرة الساذجة للعالم الذي كان يتغير ويتحول ويتطور ذاتيا فيما كان قادة الكريملين العجزة واقعين تحت سيطرة أفكار ودوجمات عفا عليها الزمن. ولم تمضي إلاَّ سنوات قليلة وقمنا بدفع الثمن الغالي.

لم يتصور أي من كبار القادة شكل مسرح الأحداث العسكرية في أفغانستان ولا رد فعل السكان الأفغان ولا الظروف الاجتماعية المحيطة. لم يكتب أحد عن هذه المعركة حتى في الموسوعة العسكرية السوفيتية، والتي تحدثت في مقالة أفغانستان عن هزائم القوات الإنجليزية هناك وعن تضاريس المكان.

لم يكلف أحد نفسه بقراءة تاريخ بلده. كم من العقود احتاجتها الإمبراطورية الروسية حتى تخضع جمهورية داغستان الصغيرة فيما تبلغ مساحة أفغانستان خمسة عشر ضعفًا مساحة داغستان بالإضافة إلى أن شعبها أكثر خشونة وجبالها أكثر ارتفاعًا مما يفقد القوات السوفيتية

تفوقها العسكري، والتقني ويفشـــل أي محاولات هجومية باستخدام الدبابات أو المدفعية أو حـــتى الطيارات والمروحيات، وحيث يتحدد مصير الحرب في الصدامات المباشـــرة بين قوات المشـــاة والفرق وحيث لا تجدي إلاَّ الأســـلحة الخفيفة التقليدية. لم يتذكر أحد كيف كانت تجربة احتلال شمال القوقاز حيث أغلب السكان يكرهون روسيا المسيحية وقيصرها الأبيض، وحيث تكبدت روسيا مئات الآلاف من الضحايا.

كل الشـــيوخ الذين شاركوا في قرار الحرب على أفغانستان قد ماتوا: بريجينيف وأندروبوف وأوستينوف وجروميكو وسوسلوف. ليس بمقدور أحدهم أن يقول شيئًا الآن. ووثائق الحرب إمـــاَّ لم تتكشـــف بعد أو أنهـــا أتلفت. لا يوجـــد أي كتاب تم فيه تســـجيل وتجميع تقارير الســـفارات والمراسلات مع المركز. اتســـم قرار مؤتمر نواب الشعب رقم 1-982 بتاريخ 24 ديســـمبر 1989م بكونه يحمل طابعًا إعلاميًا ويغض الطرف عن الكثير من الأشياء. إلاَّ أن هناك القليل من المقالات التي نشـــرت في صحيفة كومسومولسكايا برافدا ألقت بعض الضوء على هذا الموضوع.

ففي 27 ديســـمبر 1990م نشـــرت الصحيفة بعض المعلومات التي قام بجمعها فاليري أوتشـــريوف وهو عقيد وبطل من أبطال الاتحاد السوفيتي ونائب من نواب الشعب وقد خدم في أفغانستان في فرقة مروحيات في فوج جوي مختلط.

وتضمنت المقالة قائمة بالمطالب التي تقدمت بها القيادة الأفغانية من الاتحاد السوفيتي في الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر 1979م.

كما ذكر المؤلف البرقية المشـــفرة والتي دللت علـــى أن المركز ظل لفترة طويلة يحاول عدم التورط في هذه المغامرة على الرغم من محاولات ممثليه في كابول إقناعة بالتدخل.

1. «تم الاعتراف بأنه من الصواب عدم رفض إقامة علاقة مع أمين وحكومته. وفي نفس الوقت يتوجب منع أمين من ممارســـة التنكيل وتعذيب مناصري تاراكي وغيرهم من معارضي حكمـــه والذين لا يعدوا مـــن أعداء الثورة. وفي نفس الوقت يجب الاســـتفادة من الصلات والعلاقات مع أمين للكشف مستقبلًا عن نواياه وخططه السياسية»

2. كان الاعتقاد أيضًا أنه من الصواب أن يبقى مستشـــارونا العسكريين المتواجدون في الجيش الأفغاني وكذا مستشـــارو أجهزة الأمن والداخلية في أماكنهم هناك. كان من المهم أن

يقوموا بأداء واجباتهم المباشرة والمرتبطة بالإعداد، والقيام بعمليات عسكرية ضد التشكيلات المتمردة وغيرها من القوى المعادية للثورة. وبالطبع لا يجب أن يشـــاركوا في أية إجراءات قمعية ضد معارضي أمين فيما لو تورطت الوحدات العسكرية الأفغانية في ذلك.

م. جروميكو 15 سبتمبر 1979

إلاَّ أن القيادة الأفغانية ظلت تضاعف من ضغطها على موســكو وكذا مندوبونا وممثلونا المقيمون والعاملون في أفغانســتان الذين لم يرتابوا أبدًا في أن قرار التدخل العسكري قد اتخذ بالفعل.

في يومي 12 و17 ديسمبر قام ضابط اتصال الكي جي بي في كابول باللقاء مع حفيظ أمين. ومن بين الأشــياء المهمة التي طرحها أمين خلال هذا اللقاء إصراره على فكرة ضرورة المشــاركة السوفيتية المباشــرة في القضاء على الأعمال العســكرية التي تقوم بها التشكيلات المسلحة في شمال أفغانستان. وقد خلص الضابط من تصورات أمين إلى النتائج التالية:

إن القيادة الأفغانية الحالية سترحب بتواجد القوات العسكرية السوفيتية في عدد من النقاط الاستراتيجية في المحافظات الشمالية من أفغانستان.

قال أمين: أن الجانب السوفيتي هو من يحدد شكل وطرق تقديم الدعم العسكري.

إنَّ الاتحاد السوفيتي له الحق في وضع حاميات عسكرية في المواقع التي يراها ضرورية.

للإتحاد السوفيتي الحق في حراسة أي مواقع أو مشروعات أفغانية سوفيتية مشتركة.

للقوات السوفيتية الحق في تحمل مسؤولية حراسة وسائل اتصال جمهورية أفغانستان. . .

17. 12. 79. ضابط إتصال الكي جي بي.

وعلى مستوى الخبراء لم يتم مناقشه موضوع إرسال القوات إلى أفغانستان على الإطلاق. فكيف يمكن لمؤلف الكتاب أن يحكم على القرار في غياب رأي الخبراء. بكل بساطة لم يتوجه أحد لهم بالسؤال عن رأيهم.

(في يــوم إعلان إرســال القوات كنــت في نوبتي في صحيفة البرافــدا بصحبة زميلي يو. جلوخــوف، والذي عمل لســنوات طويلة في ســفارتنا في كابول. وقد تحدثنا ســويًا وتنبأنا

تقريبًا بتطور الأحداث والسبب في ذلك ليس كوننا «أذكياء». وفي المساء نفسه التقيت في الممر برئيس تحرير «البرافدا» الأكاديمي فيكتور جريجوريفيتش أفاناسيف وتقاسمت معه رؤاي وتصوراتي. قال لي ّ ناصحًا إياي وهو ينفث دخان سيجاره ببرود شديد: «أنصحك ألا تصرح برأيك لأحد». وبعد مرور عامين تم طرد مراسل «البرافدا» ليونيد ميرونوف من كابول حيث تجرأ وصرح برأيه ليس على صفحات الجريدة أو في مراسلاته بل في دائرة ضيقه من زملائه في اجتماع حزبي بصحفيين الدوليين، وصرح بشكوكه تجاه السياسة السوفيتية في أفغانستان. وقد وشت به إحدى المشاركات في الاجتماع، وهي موظفة سابقة بالصحيفة واضطرت إدارة «البرافدا» إلى نقله إلى وظيفة أخرى بسبب «عدم نضجه السياسي» أما هؤلاء الذين لم يترددوا في تأييد القرار وكانوا يكذبون دون خجل فقد لقوا احترامًا وتقديرًا كبيراً)

وقد وصلت درجة هيمنة أعضاء المكتب السياسي للحزب على اتخاذ القرارات إلى درجة تجاهل رأي أعضاء المجلس الأعلى واللجنة المركزية.

و قد لعبت شخصية ليونيد بريجينيف دورًا هامًا في اتخاذ القرارات. وأقصد هنا ليس فقط العوامل الموضوعية أو المعلومات المغلوطة التي كانت تدفعه دائمًا في هذا الاتجاه. فقد كان حزينًا لمقتل تاراكي (كيف يحدث ذلك؟ الرجل الذي استقبله لتوه والذي كان يجسد في نظره المدافع عن أفكار لينين يتم قتله بهذه الطريقة. كيف يجرؤ أمين على فعل ذلك؟ لقد أهان بذلك شخص الزعيم المحبوب للشعب السوفيتي والرجل البارز في الشيوعية الدولية والطبقة العمالية وبطل الاتحاد السوفيتي لأربع مرات وبطل العمل الاشتراكي وبطل تشيكوسلوفاكيا لثلاث مرات ومارشال الاتحاد السوفيتي. . . من يكون أمين هذا؟ هل كانت لديه اتصالات مع المخابرات الأمريكية؟ إذا فهو عميل أمريكي. لنرسل قواتنا ونبقى هناك لأسبوعين أو ثلاثة نعيد فيها النظام ثم ننسحب)

والمثير للفضول أن هذه الفرضية التي عبر عنها مؤلف الكتاب في الإصدار السابق للكتاب أي قبل ربع قرن تقريبًا قد لقيت تأكيدًا في حواراته مع بعض رجال الدولة المقربين من صانع القرار حينها. ثم ظهرت مذكرات كبير أطباء الكرملين ي. تشازوف وكتب فيها: «على الرغم من ضعف قدرة بريجينيف على التفكير النقدي السليم فقد كان يعاني ويتألم كثيراً بسبب هذه الحادثة. حيث أساءه كثيراً حقيقة أنه قد التقي تاراكي قبل الواقعة بأيام قليلة ووعده شخصيًا بتقديم الدعم والعون له، وأن الاتحاد السوفيتي يثق به تماما. قال ذات مرة أثناء لقائي به: «يا له من غادر هذا الذي يدعى أمين. كيف يقتل رفيقًا له شارك معه في الثورة. من يتزعم

الثورة الأفغانية؟ وماذا سيقال في الدول الأخرى؟ هل يمكن أن يثق أحد في كلمة لبريجينيف بعد ذلك لو كانت وعوده بالدعم والحماية محض كلمات؟»

وبنفس اللهجة تقريبًا التي تحدث بها إلي أندروبوف صرح بريجينيف في وجوده وأوستينوف. وغالبًا لعبت هذه الكلمات دورًا هامًا في التدخل في أفغانستان، ولكن الأحداث التي تلت مقتل تاراكي وفقدان بريجينيف والمحيطين به ثقتهم بأمين كان لها دورًا حاسمًا في اتخاذ قرار التدخل في أفغانستان. لاشك في ذلك. فبعد هذه الأحداث تحديدًا بدأ الإعداد للتدخل العسكري».

فما الدور الذي قام به شيوخ الكريملين الآخرين؟

لا أعتقد أن جروميكو كان مؤيدًا للقرار. ولكنه لم يكن بمقدوره في الوقت نفسه أن يخالف مبادئ الكريملين وأهمها عدم معارضة الرئيس. وفي النهاية ألم تكن تجربة تشيكوسلوفاكيا وإثيوبيا ناجحة؟ وليست جبال أفغانستان أكثر ارتفاعا من تشيكوسلوفاكيا؟ لا أعتقد أنه فكر في ذلك؟

يو. تشيرنيكوف:[1] كان جروميكو يفهم على ما يبدو ما يحدث في أفغانستان. بالطبع كان ليعارض دخول القوات السوفيتية لو كان ذلك بمقدوره. ولكنه كان يعلم أنه لو فعل ذلك سيفقد وظيفته في اليوم التالي وسيحل محله شخص آخر. ولكنه كان في داخله يعارض القرار.

ي. بيرلين[2]: على قدر المعلومات المتوفرة لديّ فإنَّ أوستينف هو الذي دفع بريجينيف إلى إتخاذ قرار التدخل. كثيرون في وزارة الدفاع رأوا أن الجيش في حاجة إلى التدريب على إطلاق النار. وعندما أصبح سوكولوف وزيرا اعتقد أن الحرب الأفغانية هي فرصة جيدة وأن الجيش السوفيتي يجب أن يشارك بأكمله فيها. ولم يكن جروميكو أبدًا ليعارض بريجينيف بل كان يؤيده في كل ما يتخذ من قرارات. فضلًا عن ذلك كان جروميكو قد تقدم كثيراً في العمر. وكانت تجربة تشيكوسلوفاكيا ناجحة. فما الفرق؟

1 يوري نيقولايفيتش تشيرنيكوف دبلوماسي سوفيتي (1918 - 2004) وسفير مفوض وفوق العادة للاتحاد السوفيتي في سوريا في الفترة من 1977 - 1979م. ومؤلف للعديد من المقالات حول العلاقات الدولية.
2 بيرلين يفجيني دميتريفيتش (1932 - 2001م) – دبلوماسي سوفيتي وروسي ومستشرق.

أ. جروميكو[1]: لكي نحدد مسؤولية كل شخص في اتخاذ قرار كهذا يجب أن نرجع إلى وثائق تلك السنوات. وفي كل الأحوال لا توجد أي إدارة دبلوماسية ترغب في إثارة نزاع عسكري. كان بريجينيف في حالة هياج بعد أن قام أمين بقتل تاراكي. ولكن كانت هناك تقارير تصل إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وإلى الكي جي بي ووزراه الدفاع. وقد سمعت من أبي أشياءًا استطعت بفضلها أن أصل إلى نتيجة مفادها أن سقوط شاه إيران كشف خطورة نقل الأمريكيين لقاعدتهم العسكرية الأساسية الموجهة ضدنا إلى حدودنا الجنوبية في أفغانستان.

المؤلف: أود أن أشير إلى أنه لم يكن هناك وجود لأي قواعد عسكرية جوية أو صواريخ لأمريكا في إيران. ففي شمال إيران كانت هناك قواعد ضخمة للاستخبارات الالكترونية. كما كانت هناك مخازن كبيرة للسلاح وحوالي 40 ألف خبير. قام الأمريكيون هناك بتشييد بنية أساسية كافية في حاله نشر قوات أمريكية محتمل. ولكن لم تكن هناك قواعد عسكرية بمعناها الحقيقي في إيران.

أ. جروميكو: في كل الأحوال كان التصور أن كلمة «خبراء» ما هي إلاَّ غطاء لتواجد عسكري أمريكي ضخم. وأن ذلك يمثل تهديدًا لأمن الاتحاد السوفيتي على حدوده الجنوبية. وفي إيران كانت هناك قواعد عسكرية ضخمة خسرها الأمريكيون. أما السبب في عدم استخدام الاتحاد السوفيتي للقوة في التعامل مع أفغانستان فمرده عدم الرغبة في التورط في هذا النزاع. وكون حدوث هذا التحول في الأحداث فهذا يعود إلى رغبة وحماسة بريجينيف والتي لعبت دوراً كبيراً. بالطبع لم يكن هو وحده من اتخذ القرار فقد كان هناك رأي جماعي تم اتخاذه في الجهاز الأهم في البلاد حينها، والذي كان مخولًا باتخاذ قرارات السياسة الخارجية.

المؤلف: أعتقد أن أفغانستان أنقذتنا من التدخل في بولندا في بداية الثمانينيات.

أ. جروميكو: أعتقد بالطبع أن الدرس المرير من أفغانستان يقع على عاتق الجميع في موسكو.

(ي. روساكوف[2]: الأمر ليس هكذا. من أنقذنا من الكارثة هم ي. أندروبوف وف. ياروزيلسكي. لقد فهم كلاهما أن هذه المعركة تحتاج إلى قوات بولندية. كما أن الناتو كان يقف متربصًا. والناتو ليس حفيظ أمين بحراسة الشخصيين في قصره بكابول).

1 جروميكو أناتولي أندريفيتش. دبلوماسي سوفيتي وروسي وعالم متخصص في العلاقات الدولية والشؤون الأفريقية.

2 موظف سابق بالمخابرات السوفيتية

المؤلف: سيد أناتولي أندريفيتش! ألا يبدو لك أنه لم يأخذ أحد برأي الخبراء سواء في موضوع أفغانستان أو غيره؟

أ. جروميكو: من ناحية أوافقك الرأي. نعم تم تجاهل رأيهم. ومن ناحية أخرى لم يبذلوا هم جهدًا للوصول بأفكارهم إلى رأس السلطة. كانت المعاهد العلمية تجري تحليلات للموقف الراهن حيث كان الجميع يؤكد أن أفغانستان يمكن أن تصبح قاعدة للصواريخ الأمريكية.

وقد بقي دور أندروبوف الذكي خفيًا. ألم يكن في مقدوره أن يقرأ المستقبل؟ يلقي ب. بونوماريوف الضوء على سلوكه ويقول: «كان بابراك كارمال قريب الصلة بلجنة مكافحة أعداء الثورة وقد زار أندروبوف في لوبيانكا قبيل إرساله إلى تشيكوسلوفاكيا».

وليس من المستبعد أن يكون أندروبوف قد تأثر بالتجربة المجرية في عام 1956م حيث تم بنجاح قمع الانتفاضة المعادية للشيوعية والاتحاد السوفيتي، وتم تعيين شخصية قوية ومرنه رئيسًا للمجر وهو يانوش كادار ما ضمن نجاح النظام الشيوعي الليبرالي في المجر واستمرار ولائه للاتحاد السوفيتي.

وحتى العاملون في جهاز المخابرات السوفيتي وصفوا أندروبوف كشخصية بارزة وإنسان فذ. ولهذا السبب تحديدًا توجب عليه لعب دور رجل البلاط الحذر مع كل من أوستينوف وجروميكو أثناء فترة عضويته بالمكتب السياسي والتي بدأت في عام 1973م.

لم يكن عليه أن يثير الشكوك سواء لدى بريجينيف المريض أو لدى شيوخ السياسة الرجعيين أعضاء المكتب السياسي (باستثناء أوستينوف وجروميكو). ولو فعل ذلك لكان رفاقه في قيادة الدولة والحزب التهموه. وربما قيد له أن يلعب دور سياو بن الروسي، ولكنه تأخر بعض الشيء حيث لم تسمح حالته الصحية بإكمال الطريق. . .

و على مدى سنوات طويلة من المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية استقى فيها أندروبوف معلوماته من عناصر الاستخبارات وكانت لديه قناعة تامة بأن إبعاد أمين، وتدخل القوات السوفيتية في أفغانستان سيمنعا هذا البلد من التحول إلى حليف للولايات المتحدة الأمريكية. ولا ريب في تحمله المسؤولية الشخصية عن هذا القرار الحاسم.

ي. روساكوف: أطلق وينستن تشيرشل على الاتحاد السوفيتي في عصر ستالين لقب «الصداع الغامض الذي لا يعرف له سبب» والأمر نفسه يمكن أن ينسحب على قرار

إرســال قوات سوفيتية إلى أفغانستان. صحيح أن الأشخاص الفاعلين في هذا الأمر معروفون للجميع: بريجينيف وأندروبوف وأوســتينوف وجروميكو وسوســلوف. وليس مهمًا معرفة من غير أعضاء قيادة الأركان العامة كان معارضًا لهذا القرار.

لم يبــد أحد معارضته إلاَّ بعد انقضاء الأمــر. كما يقول الأمريكيون «النصر له أصدقاء كثر، أما الهزيمة فتبقى يتيمة»

ومنذ البداية رفضت القيادة السوفيتية عدت مرات مطالب الزعماء الأفغان بإرسال قوات.

فمــاذا حدث؟ ولماذا تغير مزاج القيادة؟ لابــد أن عوامل كثيرة قد توفرت كان لها تأثيرها القوى في اتخاذ هذه الخطوة.

المؤلف: إذًا فأنتم توافقوني الرأي أن السبب كان يكمن في المخاوف (غير الصحيحة) من تحول أمين إلى الأمريكيين وتحول أفغانستان إلى حليف أمريكي ومن ثم ظهور قواعد صواريخ أمريكية على أراضيها. بالإضافة إلى غضب بريجينيف الشــخصي لمقتل تاراكي وفرصه عمل إحماء للعضلات العسكرية مع الثقة التامة في سهوله العملية وقصر المدة المطلوبة لانجازها.

ي. روســاكوف: بشــكل عام أرى الموقف كالتالي: صحيح أن المتخصصين قد أكدوا وجــود دلائل مقنعة على خيانة أمين إلاَّ أن هذا لا ينفي أنه من الممكن البحث عن ســبيل آخر لحل المشــكلة لا يجلب خلفه متاعب وعواقب وخيمة. على ســبيل المثال إعادة تجنيد أمين وإخبار ليونيد إيليش أنه نادم على ما فعل وسيقوم بتصحيح خطأه، وأنه عاد إلى طريق الصواب. وفيما يتعلق بقواعد الصواريخ في أفغانســتان فإن الأمريكيين في الواقع كان مهتمين بنشر الصواريخ متوسطة المدى «بيرشينج 2» في ألمانيا، وعلى حد علمي لم تكن سيبيريا في محط اهتمامهم.

المؤلف: كيف في رأيكم تم اتخاذ هذا القرار الخطير بالتدخل في أفغانستان؟

ن. يجوريتشــيف [1]: يبدو ليّ أن هذا القرار قد تم اتخاذه بشــكل متسرع وتحت ضغط العواطــف ودون إعداد جيد وبثقة زائدة في أن قواتنا كافيــة وقدراتنا وأن في مقدورنا إحلال النظام في فتره قصيرة. فما الســبب في اتخاذ قرار كهــذا؟ اعتقد أنها طموحات الجنرال الذي

1 رجل دولة وكادر حزبي سوفيتي بارز وسكرتير لجنة موسكو في الحزب الشيوعي السوفيتي في الفترة من 1962 - 1967م وسفير الإتحاد السوفيتي في الدانمارك في الفترة من 1970 - 1984م ثم في أفغنستان في الفترة من فبراير الى نوفمبر 1988م

كان قــد أصبح عجوزًا وضعيفًا. تتذكرون أن تاراكي قد توقف في موســكو أثناء عودته من هافانا في طريقه إلى بلاده. وقد حظي بلقاء دافئ من الزعيم بريجينيف. وقد عرضت مشاهد اللقــاء في التلفاز والمجلات وأظهرتهما وهما يتبــادلان القبلات ويرحبان بعضهما ببعض. عاد تاراكي إلى أفغانســتان وهناك تم طرده وإبعاده ومن ثم قتله. تلقى بريجينيف هذا الخبر كإهانه شخصية. «كيف ذلك؟ من يكون أمين هذا حتى يقارن نفسه بإنسان عظيم مثل بريجينيف؟ كيــف كانت رؤية قادتنا؟ من تدعمون هناك؟ كــم يحتاج الأمر من جنود؟ مئات الآلاف؟ أوستينوف ! ميتيا! اذهب وأعد النظام إلى هذا البلد!». لم يكن ميتيًا على دراية بأفغانستان وكذا ليونيد. ولكنهما قررا التدخل. وأخذا من حينها يخرقان كل مبادئ السياسة في تعاملهما مع هذه القضية.

المؤلف: وكيف كان رد فعل السفارة على ذلك؟

ن. يجوريتشيف: تفهم الدبلوماسيون العاملون بالسفارة الموقف وعارضوا التدخل. ولكن لم يطلب أحد مشورتهم.

المؤلف: كان هناك خبراء كبار يعملون بالسفارة. أعرف الكثير منهم شخصيًا.

ن. يجوريتشيف: عندما كنت في أفغانستان كنت أعمل معهم، وكنت على تواصل دائم معهم. كان بعضهم في أفغانســتان للمرة الثانية أو الثالثة. وقد تحدثنا كثيراً وناقشــنا مختلف الأمــور، وكنت على يقين من أن هؤلاء الخبراء يفهمــون ويدركون بالفعل من خطأ التدخل العسكري، ولكن لم يطلب أحد رأيهم ومشورتهم. أما عن دور المؤسسات الأخرى فعلى حد علمي أقدم العسكريون على هذه الخطوة بتململ شديد.

وأقصد بالعســكريين هنا الجادين منهم وأهمهم العاملين في قيادة الأركان العامة. لم أكن اعتبر أوســتينوف عســكريا فقد كان وزيرًا ودخيلا على العســكريين. كان سياسيًا في المقام الأول ويفتقد الحكمة. أما أندروبوف فكان شخصًا حذرًا. كان جروميكو أيضًا رجلًا حذرًا على الرغم من معارضته أحيانا لبعض القرارات. ربما كان هذا خطؤه الأكبر وربما لديه أخطاء أخرى لا نعرفها. من الصعب عليَّ القول الآن. لا أصدق مشاركته في هذه اللعبة وحتى الآن لا أستطيع تفهم موقفه.

لم تســتطع اللجنة التي شكلها المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتي من الوصول إلى الحقيقة. لنرى ما ســيقول المؤرخون عندما يتم الكشــف عن كافة الوثائق. . . ما نقوم به الآن ما هو

إلاَّ محاولة لإلقاء اللوم على العسكريين، وأنا لا أتفق مع هذا الطرح. فالعسكريون وإن كانوا قد قاموا بالجزء الأكبر من العمل المنوط بهم. فقد قاموا على حماية وسائل الاتصال والطرق والمطارات وأقاموا حاميات في جميع المدن الكبرى. كما استطاع العسكريون تهيئة الظروف لتدعيم موقع السلطة الجديدة. إلا أنهم عجزوا عن دعم النظام السياسي وتثبيت أركانه. كان الجميع يتحدث عن «الموقف الثوري» وكيف يتم تصعيد الثورة وتطويرها. وكان أكثر المهتمين بهذا الموضوع إدارة بونوماريوف والعاملين في جهازه. وقد تسبب ذلك في أضرار بالغة.

وقد قمنا بنقل أساليبنا ومناهجنا إلى أفغانستان رغم ثبوت عدم جدواها. فقد أضرت هذه السياسات بصغار رجال الأعمال والتجار. ثم شرعنا في تصويب الأخطاء. كان هناك في أفغانستان العديد من الخبراء الحزبيين السوفيت، وكان بينهم شرفاء وشجعان. غير أنهم لم يتفهموا جيدًا الظروف المحيطة.

المؤلف: إذا افترضنا مثلًا أن موظف شريف بمرتبة سكرتير في لجنة محلية قد وصل إلى محافظة أفغانية وأخذ يعطي النصائح والتوصيات فلن يؤدي ذلك إلاَّ إلى مزيد من الضرر. ألا توافقوني في ذلك؟

ن. يجوريتشيف: ليس تمامًا. فقد كنا نحذرهم دائمًا: رجاءًا لا تتدخلوا في الشأن المحلي. وطلبنا منهم ألا يقدموا النصح بل يرفعوا لىّ في السفارة بكل ما يردهم من معلومات موثقة حول الوضع وما يحدث في هذه المحافظة أو تلك. خفت اهتمام الأفغان بالدين ثم جاء نجيب وقرر بناء مسجد احتفالًا بصعود أول أفغاني إلى الفضاء. ولكن الإمكانات المادية غير متوفرة. هل نساعدهم نحن؟ قمنا بصياغة هذه المعلومة بحذر شديد قبل أن نبعث بها إلى العاصمة. وفي العاصمة تجاهلوا الأمر.

لم تجيد القيادة السوفيتية رؤية الموقف في أفغانستان. كما لم تستطع التنبؤ برد فعل الغرب والعالم الإسلامي والصين. ولم تكن هناك أية ثقة من الغرب تجاه القيادة السوفيتية.

كما أيد اليمين المحافظ الذي أصبح يسيطر على دول أوروبا الواحدة تلو الأخرى اتخاذ إجراءات قاسية تجاه الاتحاد السوفيت. وقد أدت الثورة الإيرانية والسياسات والنشاط السوفيتي والكوبي في أفريقيا إلى تقويض موقف الرئيس الأمريكي كارتر. أخذت بوصلة الحياة السياسية في أمريكا تتجه نحو انتهاج سياسة متحفظة، ويرجع ذلك لأسباب داخلية. ولوحظ تراجع عن سياسة تخفيف التوتر حتى قبل أفغانستان. وتم اتخاذ قرار بنشر الصواريخ متوسطة المدى

في أوروبا الغربية. ولم تكن أفغانستان مهمة في حاد ذاتها. فماذا إذًا قام الاتحاد السوفيتي غدًا باحتلال الخليج العربي؟

في اليوم التالي بعد دخول الجيش الأربعين السوفيتي إلى أفغانستان ترك مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي ز. بجيزينسكي ورقة صغيرة على طاولة الرئيس الأمريكي يؤكد فيها أن الاتحاد السوفيتي أصبح على وشك الدخول إلى المياه الدافئة أى الخليج العربي بما يملكه من ثروة نفطية. ويجب أن نساعد المعارضة المسلحة الأفغانية بكل ما نملك من وسائل. ربما استخدم مصطلح «الدخول إلى المياه الدافئة» بشكل دعائي ولكن المؤكد أنه كانت هناك رغبة في توريط الاتحاد السوفيتي فيما يشبه «فيتنام» ثانية. وإجباره على دفع تكلفة ضخمة.

قال **البروفيسير يو. جانكوفسكي**: هل كانت هناك رغبة في المضي قدمًا نحو المحيط الهندي؟ كان الوصول إلى هناك يمر عبر بلوشستان. لا أستطيع الوثوق بالمعلومات التي كانت لدي حينها والأحاديث عن رغبتنا في التحرك نحو المحيط الهندي.

المؤلف: هل كانت هناك أي نية للتوجه نحو الخليج العربي أثناء اتخاذ قرار التدخل في أفغانستان؟

ن. يجوريتشيف: لم أر أو أسمع ما يؤكد هذه الفرضية فلا وثائق ولا رسائل مكتوبة أو حتى شفهية، ولا نقاشات قد تمت مع قادة أفغان بهذا الشأن أو مع قادتنا.

المؤلف: ولكن ثمة شيء خطير واحد في السياسة: نحن لا نخطط بأنفسنا لأي شيء فليست تلك من مهامنا ولكن تصرفاتنا لا يمكن أن تأخذ على أكثر من محمل سوى ما تبدو عليه بالنسبة للمراقب المحايد. ومثالنا هنا أوروبا كما تعرف. لو لم نقرر سحق أوروبا بالدبابات حتى الأطلسي فما معنى تفوقنا على أوروبا في الدبدبات بثلاثة مرات؟ هل تفهمني؟

ن. يجوريتشيف: بالطبع.

المؤلف: نفس الأمر فيما يتعلق بأفغانستان. نحن نقترب من الخليج العربي. فالخليج العربي يمثل النفط الضروري كشريان حياة لاقتصاد الغرب. ثم نقول: لا. لسنا في حاجة إلى الخليج العربي. لو كنتم مكان الأمريكيين أو الإنجليز أو اليابانيين كيف كنتم تنظرون إلى ساستنا تلك؟

ن. يجوريتشيف: كان الأمريكيون وغيرهم يعتقدون أن هناك خطر يتهددهم مستقبلًا. لكن لم يصلني أي تأكيد أنه لدينا أي خطط بشأن ذلك.

المؤلف: نعم. ولكن بما أنك سياسي فيتوجب عليك التفكير في رد فعل الآخرين على تصرفاتكم.

ن. يجوريتشيف: بدأ الغرب يبدي معارضته منذ الأيام الأولى لتدخلنا في الافغانستان. لم يكن لدينا حينها أي أهداف سياسية أو عسكرية بعد ولكن كان بمقدورنا إخافة الغرب بتصرفاتنا. كان لديهم ما يبرر مخاوفهم.

المؤلف: هل تعتقدون بصواب فكرة أن الاتحاد السوفيتي كان يخشى انتشار الصواريخ الأمريكية في أفغانستان قبيل تدخل قواتنا؟

ن. يجوريتشيف: لا. لا اعتقد بصحة هذه الفرضية. أولًا: لأن الأمريكيين بعد فيتنام لم يكن بمقدورهم التدخل في أي بقعة من العالم. وثانيا: أنهم براجماتيون ولن يقدموا على إنفاق مبالغ ضخمة كهذه ورأسمال سياسي في أفغانستان. نحن أيضا لم يكن علينا القيام بذلك.

المؤلف: اعتقد رغم ذلك إنَّ الملحمة الأفغانية لعبت دورًا مأساويًا ولكنه عظيمًا. وكما كانت أفغانستان نتيجة لنجاح التدخل في تشيكوسلوفاكيا في عام 1968م كانت الصعوبات التي واجهتنا هناك منقذا لنا من حدوث كارثة كبيرة في بولندا.

وفي هذا الوقت كانت أفغانستان بالنكهة السوفيتية تمثل تهديدا للصين وعاملًا ضاغطًا على العلاقة الودية مع باكستان. كان التحرك نحو الخليج ليعطي الاتحاد السوفيتي أفضليه استراتيجية في علاقته مع الصين أيضًا. ولذا فمن بين شروطها الثلاثة لتطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي طالبت الصين ليس فقط بانسحاب القوات السوفيتية من ومنغوليا والقوات الفيتنامية من كمبوديا، ولكن أيضا بانسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان. كما أصبحت الصين تدعم بشكل قوي المعارضة الأفغانية المسلحة. وشهدت هذه الفترة تناميًا في التعاون الصيني الأمريكي الموجه ضد الاتحاد السوفيتي. وقد تمت استعادة العلاقات بين البلدين في ديسمبر 1978م وفي يناير 1980 زار وزير الخارجية الأمريكي ج. براون الصين. واتفق الجانبان على «تنسيق الجهود والقيام بإجراءات منفصلة وفي أوقات محددة ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان»

وبالنسبة للعالم الإسلامي كانت تصرفات الدولة العظمى الشيوعية الملحدة – الاتحاد السوفيتي – تمثل عدوانا على بلد إسلامي متاخم للخليج العربي. حيث المملكة العربية السعودية بثرواتها النفطية ومقدساتها الإسلامية – مكة والمدينة. وفي جنوب شبه الجزيرة العربية

كان هناك نظام ماركسي حاكم وقوي. وفي إثيوبيا وصل الشيوعيون إلى السلطة. هكذا بدت الصورة من الرياض وغيرها من البلدان الإسلامية لما يجري. ولذا كان رد فعلهم الرافض لسياسات الاتحاد السوفيتي طبيعيًا وبدأت حملات الدعاية المضادة سواء في وسائل الإعلام المطبوعة أو الالكترونية فضلًا عن تقديم الدعم المالي والعسكري للمعارضة الأفغانية.

بحثا عن مخرج من الأزمة

عندما دخلت القوات السوفيتية أفغانستان اصطدمت بسكان معادين لها ومستعدين لخوض حرب عصابات طويلة، ويتمتعون بإمدادات ودعم مالي ومادي وعسكري من مختلف أنحاء العالم. وأصبح الأمر مفهومًا بالنسبة للقيادة السوفيتية، وأن القضاء على المعارضة الأفغانية هو أمر بعيد المنال.

يو. جانوفكسي: عندما طالت إقامة القوات السوفيتية في أفغانستان وتخطت المدة المقررة والتي كان يعتقد أنها أسابيع قليلة بدءوا في تحليل الموقف بدقة. وفي عام 1980م أخذ القادة العسكريون السوفيت يتوافدون على أفغانستان وقد توصلوا جميعًا إلى نتيجة مفادها أنه لا حل عسكري للأزمة. فماذا فعل أوستينوف؟ في بداية 1981م كتب مذكره إلى المكتب السياسي أقر فيها أنه لا حظوظ لأي حل عسكري. وقد قرأت هذه الوثيقة بنفسي. «يبدو الطريق وعرا عندما تسير في دروب غريبة». حفظت هذه الوثيقة في الأرشيف وكأنها لم تكن.

وكتب **ف. كيربيتشينكو**: «بعد عام كامل اقتنعت أن تواجد وتدخل جيشنا في أفغانستان لن يساعد على استقرار الوضع في هذا البلد ولا على دعم النظام الحاكم هناك الموالي لنا، وأنه يجب علينا التعجيل بالانسحاب من أفغانستان. افتقدت القيادة السوفيتية للنضج وبعد النظر والشجاعة في هذه العملية، وذلك على الرغم من تفهم بعض القادة العسكريين والسياسيين لحقيقة الموقف.

وفي أثناء الاجتماعات المنتظمة والدورية لمناقشه تطور الموقف في أفغانستان، والتي حضرت بعضًا منها نادى كل من الجنرال س. أخروموف وف. فارينكوف بأعلى صوتهم قائلين: «افهمونا. الجيش السوفيتي يحارب شعبًا ولن يحقق أي انتصار في أفغانستان».

وبعد أن اتخذوا قرارهم الخاطئ على غير ما جرت الأعراف أراد قادة الكريملين أن تأخذ الأحداث مجرياتها. فلم يكن باستطاعتهم القيام بأي شيء واصطنعوا وكأن شيئًا لا يحدث

وأخذوا يكررون نفس الصياغات واللعنات ضد الغرب، واستمرت في إرسال شباب الجيش إلى معركة ليست ضرورية بالنسبة للاتحاد السوفيتي، وتم إنفاق مليارات الروبلات التي لانعرف حجمها تحديدًا.

وبدا بابراك كارمال زعيما ضعيفًا. كتب تشازوف قائلا: « اقتضت الضرورة أن التقي به مرات على مدى سنوات خدمتي الطويلة في أفغانستان. وبدا لىَّ رجلًا ذكيا تستمتع بالحديث معه ومثقفا كما أنه يتقن الإنجليزية. إلاَّ أنه يفتقد إلى موهبة القيادة والتنظيم وليس بمقدوره قيادة الناس خلفه أو يبث فيهم روح الإيمان بفكرته. وفي كل مرة كنت التقي به كان يبدو تائهًا، يبدو أنه قد نئي بالحمل الذي على كتفيه. تكون لدي انطباع أنه معزول في قصره، ولا يعرف تفاصيل ما يدور أو ما يجب عليه فعله، وكيف الخروج من هذه الأزمة . بدأ يستخدم الكحول بإسراف ومرض بالكبد واضطررنا إلى تحذيره بشدة بضرورة إتباع نظام غذائي، ووافق ثم سرعان ما عاد إلى عادته الأولى. حذرت أندروبوف الذي كان دائمًا يلومني ويؤيد كارمال وقلت له أنه إن لم ينصت إلينا وإلى نصائحنا ستكون نهايته مؤسفة».

واندلع الصراع بين أصحاب الرايات «البرشمه» والخلقيين وهو ما قسم الحزب والجيش. أما المعارضة المسلحة فقد انهال عليها المال والسلاح والكوادر والمتطوعون من البلدان الإسلامية فقويت شوكتها ووسعت من مناطق نفوذها في البلاد.

وقد أدى ذلك إلى سفر أندروبوف نفسه إلى أفغانستان بعد أن تم اتخاذ كافة الإجراءات الاحترازية.

وسأقفز قليلًا للمستقبل وأقول: أن خسائر الطيران السوفيتي والأفغاني قد ارتفعت بشدة في عام 1986م عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية في دعم المجاهدين صراحة حيث أمدتهم بصواريخ مطورة من طراز أرض جو كان بمقدور أي جندي أن يطلقها من فوق كتفه فيصيب طائرة أو هيلكوبتر.

وعندما أفاقت القيادة السوفيتية من سباتها بدأت تبحث عن حل سياسي. لكن أمانيها بسحب قواتها مع الإبقاء على نظام موالٍ لها في الحكم ذهبت أدراج الرياح. حتى المقترح بأن تبقى هذه القوات ضمن تشكيل تحالف دولي بدت غير واقعية. فلم تكن الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في تحرير الاتحاد السوفيتي من الفخ الأفغاني. وبقيت كل الاتفاقات والمعاهدات التي وقعت سواء عن طريق باكستان أو الأمم المتحدة حبرًا على ورق. وأصبح الانسحاب ضرورة ملحة.

كتب كورولينكو: « فيما يتعلق بكون أندروبوف كان أول شـخصية في الحزب والدولة تفتـق ذهنه لقرار الانسـحاب، كنت أول مـن يتوقع ذلك من خـلال حديثه مع الأمين العـام للأمم المتحدة بيريز ديكويلار. وكان هـذا اللقاء في 28 مارس 1983م. ولم يكتف الدبلوماسـي السوفيتي بالإعراب فقط عن سعيه لتحقيق تسوية سلمية لمشكلة أفغانستان بل وعدد صراحة خمسـة أسـباب تجعل من ذلك أمرًا ضروريًا في نظره. بدا أندروبوف وهو يثني أصابعه واحدا تلو الآخر ويقول: «إن الموقف الحالي قد كبد الاتحاد السـوفيتي خسائر فادحة في علاقاته أولًا: بالغرب وثانيًا: بالبلدان الاشـتراكية وثالثا: بالعالم الإسلامي ورابعا: ببلدان العالم الثالث الأخرى وأخيراً أنها أصبحت مشـكلة مزمنة ومؤلمة بالنسبة للوضع الداخلي في الاتحاد السوفيتي وبالنسبة لاقتصاده والمجتمع».

نعـم. الأمر هكذا في حقيقتـه. ولكن، ألم يكن زعيمنا «العظيم» يعلم كل هذه الحجج والبراهين عندما صوت على قرار ضار كهذا؟

بعد وفاة أندروبوف في التاسع من فبراير 1984م استمر العمل خلف الكواليس لتسوية الأزمة الأفغانية.

وقـد أصر المارشـال س. أ خروموف والنائب الأول لوزيـر الخارجية ج. كورنينكو على الانسـحاب السـريع للقوات السـوفيتية. كانوا يرون أنه بدون الدعم السوفيتي لن يتمكن الحزب الشـعبي الديمقراطي في أفغانسـتان من البقاء طويلًا في السلطة، ويجب أن يتم العمل على تشكيل حكومة ائتلافية. وقد أصرَّ كل من وزير الخارجية حينها ادوارد شيفرنادزة وف. كريوتشـكوف على دعم الحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني مسبقًا حتى يتماسك ويبقى في السلطة بعد انسـحاب القوات السوفيتية. وكان جورباتشوف مترددا، وتم نقل كورنينكو غير المنسجم في العمل مع شيفرنادزة إلى وظيفة جديدة وهي النائب الأول لرئيس قسم العلاقات الدولية باللجنة المركزية والتي كان يترأسها في حينها أ. دوبرينين. وسرعان ما انسحب كل من كورنينكو ورئيس الأركان العامة خروموف وتقاعدا. كانا الاثنان مسـتقلان في أرائهما ولذا تخلص منهما جورباتشوف وشيفرنادزة.

وفي تقريره أمام المؤتمر السـابع والعشـرين للحزب قي عام 1986م اعترف جورباتشوف بأن أفغانسـتان قد تحولت إلى جرح غائر وأعرب عن «رغبته في انسـحاب القوات السوفيتية من هناك في أقرب وقت وعودتهم بناءًا على قرار حكومي لوطنهم».

كانت إدارة جورباتشـــوف ترغب في الحفاظ على ماء الوجـــه بالطبع والوصول إلى حل يســـمح لها بتشكيل حكومة مؤقتة بمشاركة بعض أعضاء الحزب الشعبي الديمقراطي. وتوصل القادة في الكريملين إلى نتيجة مفادها أنه حان الوقت لتغيير بابراك كارمال الضعيف بشخصية أخـــرى أكثر مرونـــة وقوة في نفس الوقت. وفي الرابع من مايو 1986م تم تعيين محمد نجيب رئيس الشـــرطة الأفغانية الأســـبق بدلًا من بابراك كارمال في رئاسة الحزب الشعبي الديمقراطي الأفغاني. وقد حاول نجيب أن يدعم وحدة الحزب ويكثف العمليات العسكرية ضد المعارضة المسلحة ويوسع في نفس الوقت من القاعدة السياسية والاجتماعية لسلطاته.

وأخذ جورباتشـــوف يبحث عن حل ما على الساحة الدولية. وفي أثناء زيارته الرسمية إلى الهند في نهاية نوفمبر 1986م دعى باكســـتان إلى المشـــاركة في التســـوية. وعقد لقاء رفيع المستوى بين موسكو وإسلام آباد. وتمت مخاطبة زعماء منظمة عدم الانحياز روبرت موجابي من زيمبابوي وراجناف غاندي من الهند والشاذلي بن جديد من الجزائر ومطالبتهم بالتوسط وفي نفس الوقت تهيئة مناخ مناسب في الأمم المتحدة.

وفي الأول من يناير 1987م دعى نجيب الله إلى مصالحة وطنية وأعلن عن وقف لإطلاق النار لمدة ســـتة أشهر اعتبارًا من الخامس عشر من يناير. إلاَّ أن مبادرته قوبلت بالرفض من قبل المعارضة المسلحة واستمرت الحرب.

وفي ديسمبر 1987م وفي أثناء لقاء رفيع عقد في واشنطن اقتنع جورباتشوف بأن ريجان على اســـتعداد للتسوية بشـــرط الانسحاب غير المشروط للقوات الســـوفيتية من أفغانستان. ويبـــدو أنه مع حلول بداية عام 1988م كان المحيطون بجورباتشـــوف علـــى قناعة بضرورة الانسحاب من أفغانستان في كل الظروف.

وفي الثامن من فبراير 1988م وقبيل الجولة الجديدة من المفاوضات التي جرت في جينيف بين الباكســـتانيين والأفغان تحت رعاية الأمم المتحدة أعلن جورباتشوف أن الاتحاد السوفيتي على استعداد لسحب قواته في الخامس عشر من مايو 1988 على أن ينهي انسحابه خلال تسعة أشهر بشرط أن يتم التوقيع على اتفاقية سلام. كما صرح بأن الاتحاد السوفيتي يريد أن يرى أفغانستان مستقلًا ومحايدًا وغير منحازًا.

وفي الســـادس من إبريل 1988م التقى نجيب الله مع جورباتشـــوف في طشقند وبعدها بيومين تم نشـــر تصريح سوفيتي أفغاني مشـــترك. وتضمن التصريح ثماني نقاط تدعم ما قام

جورباتشوف بطرحه في الثامن من فبراير. وفي الرابع عشر من إبريل 1988م تم التوقيع على عدد من الاتفاقيات في جينيف. وكان أهمها اتفاقيه الالتزام بانسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان، ووفق تواريخ محددة. غير أن الولايات المتحدة الأمريكية امتنعت عن التعهد بوقف الدعم العسكري للمعارضة المسلحة والتأثير على البلدان الأخرى (باكستان والمملكة العربية السعودية) كي يوقفا مساعداتهم إلى المجموعات المسلحة المعارضة لكابول. ولم يكن في نية «تحالف السبعة» الذي يتزعم المعارضة المسلحة أن يلتزم ببنود الاتفاقية. ولم يكن يعني هذا سوى انسحابا للقوات السوفيتية من طرف واحد.

وكانت هذه الخطوة تخفى الكثير خلفها. بدا وكان واشنطن وموسكو متقاربان فيما يتعلق بالنظرة تجاه المشكلات العالمية وسعيا إلى إزالة هذا العائق المتمثل في المشكلة الأفغانية قبل زيارة ريجان إلى الاتحاد السوفيتي (29 مايو – 1 يونيو 1989م). منحت واشنطن الاتحاد السوفيتي فرصة الحفاظ على ماء وجهه وألا يتحول انسحابه من أفغانستان إلى هروب مذل مثلما حدث مع الولايات المتحدة الأمريكية نفسها عندما انسحبت من فيتنام. كان الأمر بالنسبة للأمريكيين يمثل نجاحًا باهرًا في كل الأحوال فقد سحب الاتحاد السوفيتي قواته من عتبات الخليج العربي وجنوب آسيا. وفي الخامس عشر من مايو 1988م بدأت القوات السوفيتية في الانسحاب وأكمل العملية في شهور الشتاء وهو اختيار ذكي حيث كانت يضعف نشاط المعارضة المسلحة بسبب الظروف المناخية القارسة.

وفي الخامس والعشرين من مايو 1988م أعلنت الحكومة السوفيتية عن حجم خسائرها في أفغانستان. وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده القيادي بوزارة الدفاع الجنرال أ. ليزيتشيف صرح بالقول: « أن عدد القتلى بلغ 13310 جنديا وضابطا وجرح 35478 كما بلغ عدد المفقودين 311». وفي كل الأحوال فقدت الولايات المتحدة في فيتنام أربعة أضعاف هذا الرقم.

المؤلف: لماذا تم تعيينكم سفيراً في أفغانستان؟ ما المنطق في ذلك؟

ن. يجورتشيف: كان هناك ما يقرب من عشر مرشحين للمنصب في المكتب السياسي ولكن تم اختياري. كنت على دراية بالعمل الدبلوماسي والحزبي والاقتصادي. وكان هذا ما تحتاجه وظيفة سفير في أفغانستان. لم تكن لدي معلومات عن أفغانستان، ولم أخف هذه الحقيقة. لكن الهدف كان يتمثل في الارتقاء بدور السفارة هناك. كان يعمل في أفغانستان

عدد كبير من الجنرالات، ومكتب للأمن القومي ومكتب تمثيل لوزارة الداخلية. أما السفارة فكان دورها غير ملحوظ. فقمت بإقامة علاقات وثيقة مع نجيب وانحصرت هذه العلاقات في الأمور الرسمية لا الشخصية. وقبل مغادرتي منحنى وسام ثورة إبريل.

وهو وسام يعد الأرفع وهو مصنوع من الماس بالكامل. ونادرًا ما يتم منحه لأنه مكلف جدًا. وحتى تجتاز السفارة تلك الفترة العصيبة من انسحاب قواتنا قمنا ببناء ملجأ تحت الأرض يتسع لمئة شخص وسياج حول السفارة ونظام إشعار وقمنا بحفر خنادق كي تكون حائط صد في حال إطلاق نار كي يقفز فيها العاملون بالسفارة. كان من واجبنا الاشراف على ترحيل ثمانية الاف مواطن سوفيتي مقيم بأفغانستان. قمنا بتوقيع بروتوكولات لتفعيل نشاطنا كسفارة، وقمنا بإلقاء كثير من الأعباء التي كانت السفارة تقوم بها في السابق على عاتق الأفغان.

المؤلف: كيف تقيمون مساعدتنا لأفغانستان؟

ن. يجوريتشيف: كنت هناك في الفترة التي انسحبت فيها قواتنا. لم يكن من الصواب أن نترك بهذا البلد ليلقى مصيره. قمنا بسؤال قادة أفغانستان ماذا يحتاجون منا. وقمنا بتلبية كل ما طلبوه منا. طلبوا تجهيز الجيش وتوفير السلاح والذخيرة بما يتناسب مع عدد القوات. قمنا بتلبية طلباتهم كافة. لا يمكن أن يلومنا أحد في ذلك. فالدولة عضو في الأمم المتحدة، ومن واجبنا تقديم العون في بناء احتياطي عسكري وغذائي ومن الوقود وغيرها. قمنا بما هو في مقدورنا.

و في أثناء هذا اللقاء الصحفي كان نجيب الله ما زال ممسكا بمقاليد الحكم. أطال الدعم السوفيت العسكري ومن الغذاء من أمد حكمه لثلاث سنوات أخرى إلاَّ أن انهيار الاتحاد السوفيتي لم تشعر بلدان آسيا الوسطى بأي واجب أو التزام سياسي أو أخلاقي تجاه حكومة غريبة عليهم. وتطورت الأحداث في عام 1992م وانتهت التجربة الشيوعية التي كلفت الدولة الكثير من الدماء والأموال بفشل ذريع وإلى الأبد.

اكتمل الانسحاب السوفيتي من أفغانستان في منتصف فبراير 1989م عندما كان الجنرال ب. جروموف آخر من عبر الحدود عبر جسر على نهر أمودريا. لم يصل أحد من القادة السوفيت لاستقباله وظل نظام نجيب الله يعيش على المساعدات المقدمة من موسكو وبقي حتى 1992م عندما قرر بوريس يلتسين قطعها تمامًا اعتبارًا من الأول من يناير 1992م.

وعندمـــا احتل المجاهدون كابول اختبأ نجيـــب الله في مقر الأمم المتحدة وبقي هناك عدة سنوات.

وســـرعان ما اندلع القتال بين مختلف مجموعات المعارضة. ولم يعد بإمكان الدبلوماســـيين السوفيت البقاء في كابول حيث تساقطت القذائف يوميًا على مبنى السفارة. وتم إرسال ثلاث طائرات نقل عســـكرية إل-76 لنقل العاملين في الســـفارة والمواطنين الروس. وتم نقل 167 راكبًا في أول طائرتين تحت وابل من النيران. وكان طاقم السفارة مع السفير ي. أوستروفينكو ســـيطيرون في الطائرة الثالثـــة إلا أن صاروخًا أصابها واحترقت. ونجـــح طاقم الطائرة وقوات المظلات من مغادرتها ســـالمين ولم يصب أحد. انفجرت الطائرة فارغة. وقضى 66 شـــخصا ليلتهم في ملجأ المطار.

وخرج السفير من المبنى وتوجه إلى مدينة كابول المشتعلة وتحت وطأة النيران أجرى مكالمة هاتفيـــة مع الرئيس الأفغاني برهان الدين رباني والخارجيـــة الأفغانية، وتلقى تعهدات لا قيمة لها بضمان أمنه والعاملين بالســـفارة. وقام زعيم جماعة الحركة الإســـلامية الوطنية لأفغانستان الاوزبكي عبد الرشيد رستم بتخصيص ثلاث طائرات صغيرة طراز إن 36 أقلت 66 شخصًا إلى مزار شـــريف يوم 29 أغســـطس وكان بينهم السفير السوفيتي وزوجته. ومن هناك استقل الجميع الباصات التي نقلتهم إلى أوزبكستان.

وفي عام 1996م استولت حركة طالبان الراديكالية الإسلامية على السلطة في أفغانستان. وتجاهلـــت الحركـــة المكانة الدولية لبعثة الأمم المتحدة حيث اقتحمهـــا مقاتلو طالبان، وألقوا القبض على نجيب الله وتعذيبه ومن ثم قتله ثم علقوا جثته في ميدان.

وكتب على هذا البلد الذي عاني الكثير أن يعيش مأساة جديدة.